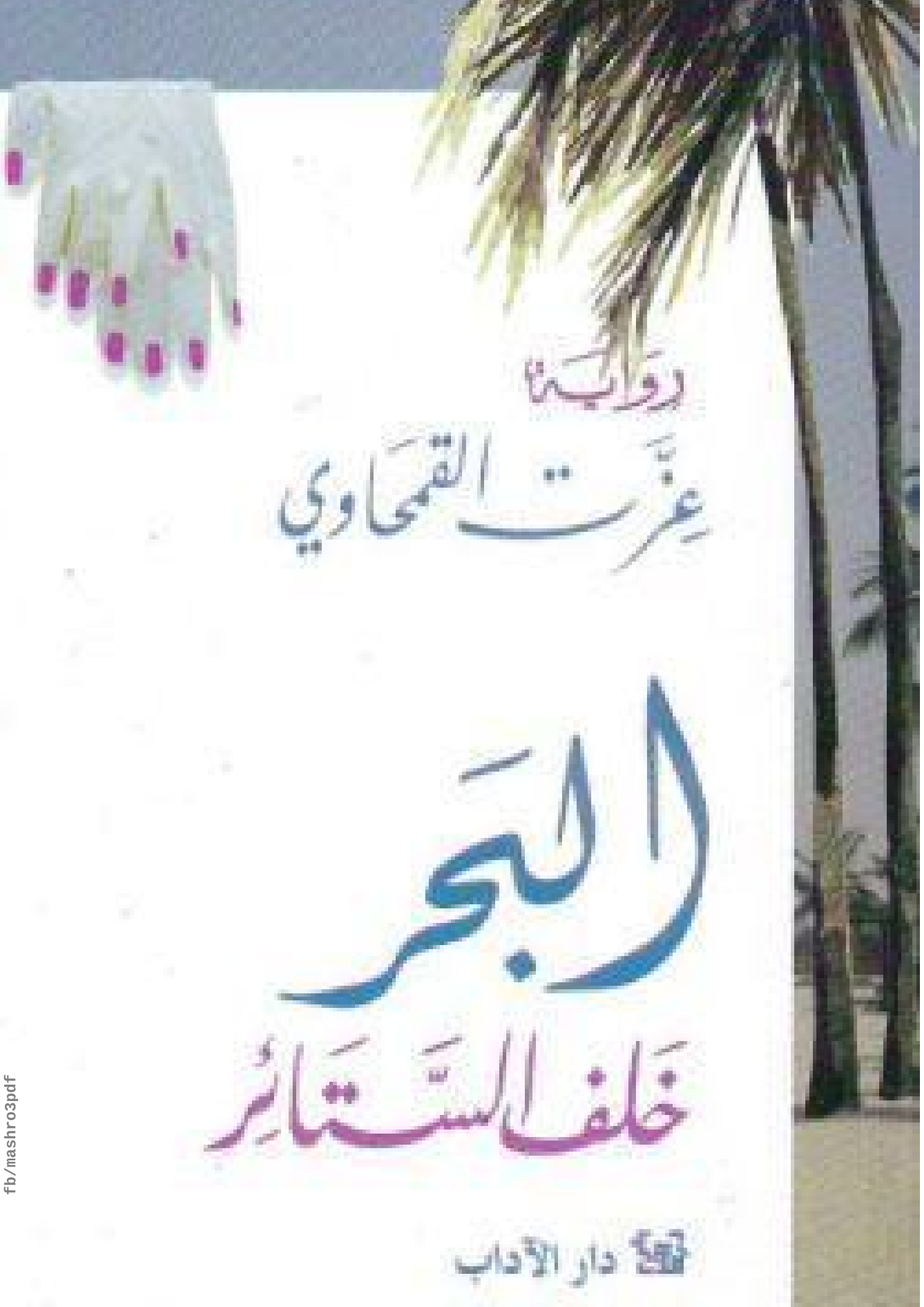

رواية

عز القمحاوي

البحر خلف الستائر

دار الآداب

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

عزّت القمحاوي

البحر خلف الستائر

روايه

دار الآداب ـ بيروت

fb/mashro3pdf

البحر خلف الستائر

عزّت القمحاوي / روائي مصري

الطبعة الأولى عام 2014

ISBN 978-9953-89-270-2

حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب. 4123 ـ 11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)

فاكس: 009611861633

e-mail: rana.adab@hotmail.com

rana.adab@gmail.com

info@daraladab.com

/Dar.Al.Adaab @DarAlAdab daraladab.com

fb/mashro3pdf

في غرفة فسيحة يسمّونها جناحًا، يعيش. لا يعرف متى يمكنه أن يغادر، ولا يتذكّر لمَ ومتى جاء. يشعر أحيانًا أنّه كان في هذا المكان من قبل، وأحيانًا يتخيّل أنّه شاهده في فيلم بالأبيض والأسود، بينما يجعله عجزه عن الفرار يعتقد أنّه نائم على سريره في بيته، يحلم بأنّه طارئ في غرفة بالطابق الثاني والعشرين من برج ذي ستّة وعشرين طابقًا. حتى عندما يجمع ستائر الواجهة وينظر عبر الزجاج المزدوج، لا تساعده رؤية البحر على الحسم تجاه يقين الصحو أو النوم. يرى أمامه لُجَّةً واسعة من ماء ليس له نَزَقُ مياه البحار، لا موجةٌ فرحةٌ أو غاضبة، لا رفيفُ جناحِ نورسٍ يُرعش سطح الماء ليجعل هذا الأخضر المترامي مختلفًا عن الماء الساكن في لوحة رومانسيّة أو حلم.

fb/mashro3pdf

يشعر أحيانًا بأنّه الكلّ، ويشعر غالبًا بأنّه لا أحد. كلّ من يقابله يمنحه لقب «سير» مع انحناءة مهذّبة: من يفتح له بابَ مصعدٍ حمل آلافًا مثله من قبل، من يقدّم له طعامًا معَدًّا للا أحد، من يسوّي له سريرًا فسيحًا يفي باستلقاءة مؤرّقة للا أحد، من يمنحه منشفة نظيفة جاهزة لأيّ «لا أحد» في النادي الرياضي.

أحسّ بغبطة ذات مرّة لأنّ عدد من ينحنون له يفوق عدد أقنان إقطاعيّ روسي في القرون الأكثر إظلامًا من حياة تلك الدولة اللاشرقيّة واللاغربيّة. لكنّ الغبطة ليست قدَرَ الطارئين، إذ سرعان ما انتبه إلى أنّ من يبجّلونه يفعلون الشيء ذاته مع آلاف الطارئين، وبقسمة عدد الخدم على عدد المخدومين، وجد أنّ نصيبه لا يمكن أن يتعدّى إيماءة خفيفة وافترارَ ثغرٍ عن نبتةِ ابتسامة صغيرة يتصدّق بها أحدهم عليه.

كلّ فريق الانحناء بالبرج جاء من بلاد الشمس القارحة التي تُخزي العيون وتُقَمِّطها بأجفان مسبولة، لها المظهرُ المخادع لاسترخاء ما بعد إشباع الحبّ. فتيات وفتيان النَّخْب الأوّل يصطفّون في الاستقبال ـ المكان الذي يملي على الطارئ انطباعه الأوّل عن البرج، الفرزُ الثاني على صناديق الحساب في المطعم والكافيتيريا والبار، الثالث

fb/mashro3pdf

للخدمة في المطعم وفي النادي الرياضي، والأخير مخصّص لخدمة تنظيف الغرف ـ لتقليل مخاطر اللقاء مع الطارئين الذين يبقون في غرفهم وقتَ التنظيف مصادفة أو تربّصًا.

بينه وبين نفسه يتمنّى أن يسمع كلمات الشكر في شقشقات اللغة الآسيويّة التي تشبه هديل الحمام، وقد استمع إليها ذات يوم من شاعر من تلك البلاد كان طارئًا على بلاد الغيوم، وكاد يفهم لغته الغريبة من فرط رقّتها.

للشاعر أن يشرِّع لغته، بل عليه أن يفعل ذلك، إرضاء لمضيفيه اللحوحين الذين جاءوا به لهذا الغرض. لكنّ الطارئين في البرج الذين يحصلون على كلّ ما يطلبون، كما في الفردوس، لا يكترثون لجمال لغة مجهولة. وهكذا، يتمكّن النُّدَّلُ من صون لغتهم الأمّ، يستخدمون الإنجليزيّة بتهذيب وظيفي: مرحبًا سيّدي، استمتع بوجبتك سيّدي، شكرًا سيّدي، أتمنّى لك يومًا طيّبًا سيّدي.

يتمرمغ أنف لغة اللوردات المتعجرفة في الأرض وقد صارت لغة كونيّة للخدمة، لعلّه القصاص العادل على توسّع الجزر البريطانيّة في الغزو والاحتلال في غابر الزمان، لكنّه بالتأكيد حظّ النُّدَّل الحسن، فقد يعودون إلى بلادهم ذات يوم، ووقتها يكون بوسعهم أن يفخروا بأنّ

fb/mashro3pdf

لغتهم لم يمسسها غريب، وأن يحكوا لأحفادهم عن بطولات فاتهم أن يحكوها للأبناء، كيف حفظوا لغتهم في قلوبهم طوال سنوات غربتهم فلم يُجبروها على الترحيب بمن لا يستحقّ، أو يورّطوها في عمل غير منطقي، كأن يشكروا المخدوم بينما كان عليه أن يشكرهم.

fb/mashro3pdf

لا يكفّ السجين عن عدّ أيّامه، بادئًا استسلامًا يشبه الرضى، إلّا عندما تنقطع علاقاته بالحياة خارج زنزانته في مصادفات حزينة، كأن يبلغه نبأ موت أمّه، أو فرار الزوجة مع صديق، أو عندما يكتشف أنّه وصل إلى الحبس بوشاية من رفيق كان محلَّ ثقته.

البرج لا يدع مجالاً للمصادفات، وإنّما يحتاط، ويقصقص جناحي الطارئ حتى لا يتمكّن من الطيران. لا يفعل ذلك بالإجراءات الخشنة المدانة إنسانيًّا، كالأقفال الضخمة على أبواب الغرف أو السلاسل الثقيلة على كواحل المساجين، بل بالحيل اللطيفة التي لا تدع فرصة لتفاقم مشاعر السأم.

fb/mashro3pdf

هناك دائمًا ما يأخذ الطارئ نحو الاستسلام الطوعي، أو حتى الغبطة بوجوده في البرج، كأن يفاجئه صنف غير متوقّع من الطعام على الغداء، أو تغيُّرُ لون مفارش الطاولات، أو تسرُّب فتاة من الفرز الأوّل للخدمة في المطعم بين فتيات الفرز الثالث، أو حتى لتدفع بعربة النظافة في الممرّات بين الغرف.

وكاثرين هي من بنات الفرز الأوّل منظورًا إليها بعينِ طارئ متعجِّل، لكنّها فريدة بعين طارئ متأمّل لجمالها المستغني عن خضاب فتيات الاستقبال.

جفنها الواسع النعاس يُعلِّم الغزل. وجهها كلّه من النوع الهجين الذي يُخرجها من الوطنيّات الضيّقة الجالبة للحروب ويجعلها صالحة لأن تكون نجمة في هوليوود أو بوليوود أو بائعة في الأسواق الحرّة الدانماركيّة أو نادلة في مطعم بجزيرة العرب.

كاثرين فوق ذلك تمشي مرفوعة الرأس بقامة أطول من قامات نساء بلادها، وأطول ما تكون كاثرين يومَ الجمعة، حيث ترتدي النادلات فساتين حريريّة ملوّنة بلا أكمام مع شالات تُلاعِب العيون سترًا وتعرية.

كاثرين في اليوم السابع تكون أكثر فتنة وأطول عنقًا ممّا هي عليه في ستّة أيّام ترتدي فيها البنطلون والبلوزة مع

fb/mashro3pdf

مريلة صغيرة تغطّي المنطقة الأكثر عرضة لانسكاب النظرات، حيث تتعلّق المريلة بزنّار يُخصِّر الخصر وتنسدل من فوق السِّوَّةِ إلى ما فوق الركبة.

تبدو في الفستان ملكةً بين وصيفاتها يكشف ابتهاجُ الحرير على جسمها عن رهافة نبيلة في أقواس النهدين والردفين، تبتسم للطارئين بعزّة ترجّح أنّها كانت ملكة في حياة سابقة. وبالنسبة لعينٍ فنّانةٍ، فتنتُها سُرّة تحت فستان كتّاني في لوحة من الحجر. لن تكون كاثرين سوى واحدة من العازفات الفرعونيّات المنذورات لبهجة الملك الإلٰه.

كاثرين أحسّت الإعجاب في عينيه، وانهزمت داخلها تعليمات البرج عندما سألها عن صحّتها. كان في ما يبدو الوحيدَ الذي لاحظ شحوب وجهها ذات يوم.

ـ نعم سيّدي، متوعّكة قليلاً، ليس شيئًا خطيرًا، شكرًا لك، شكرًا سيّدي، شكرًا.

غمر عينيها امتنان لا يشبه ذلك الذي يحسّه المرء تجاه غريب، إذ أخذ لسانها يتدافع بعبارات الشكر كما تتدافع يدٌ بمنشفة لتجفيف ما انسكب على الطاولة، لكن مهارة اللسان لم تتمكّن من إزالة أثر الحنان في كلمات متكرّرة بنهايات متلاشية.

بدأت تعامله كصاحب بيت، تسأله إن كان يريد أن

fb/mashro3pdf

يشرب شايًا أو قهوة مخصوصة، وهو ـ الذي يقدّس نومة القيلولة ـ بدأ يشرب القهوة بعد الغداء، وصار يطيل زمن بقائه في المطعم قدر المستطاع، يتطلّع إليها متشهيًا كلّما مرّت به، وتردّ بابتسامة من شفتين غضّتين، وتُسرِّب إليه من بين شقّي الجفون نظرة امتنان، يتقبّلها فرحًا مثلما يتقبّل شاكرًا الضيافات المميّزة التي تقدّمها إليه كلّما وُجدت فرصة.

في عَشاء جمعة متأخّر، كانت أعداد الطارئين ضئيلة بالمطعم. وقفت كاثرين أمام الطارئ، وسألته:

ـ هل تحبّ أن تجرّب الآيس كريم سيّدي؟

ـ أحبّ كلّ ما تقترحين.

أجاب، فابتسمت واحمرّت قليلاً. ذهبت وعادت بالآيس كريم، وضعته أمامه ورمقته بنظرة ودود، بينما همْهم عبورُ طارئ كلمات الغزل القليلة التي رتّبها بالإنجليزية. لم يتمكّن من جمع نثار الجملة لينطقها، لكنّه تماسك في النهاية وشكرها باقتضاب، وأخذ يصرف تلعثمه في مداعبة الكرات الباردة بطرف الملعقة، بينما انصرفت كاثرين إلى حاجز في زاوية قصيّة تشارك زميلاتها في إعداد مفارش الإفطار، ترمق صورته المنعكسة أمامها على زجاج الواجهة، تبتسم لعينيه المتعلّقتين بصورتها. وعندما رأت

fb/mashro3pdf

سكونه على الزجاج، خطت نحوه تحمل الطبق من أمامه.

العين المحايدة سترى اهتمام كاثرين التزامًا بلطف تقتضيه الوظيفة، وربّما تقول عين ذكوريّة غيور إنّه قد شَغف النادلةَ المميَّزة حبًّا، وقد يراه آخرون غشّاشًا يُربك تقاليد الضيافة الرفيعة ويستميل النادلات بعطايا صغيرة.

لم يهتمّ كيف ينظرون إليه، ولم يحاول معرفة سرّ اهتمامها، مستغرقًا في مراقبة دخول الطارئين وانصرافهم، منتظرًا فراغ المطعم إلى حدّ يُمَكِّنه من تركيب جملة هامسة يحملها إليها بقلقِ خادمة تحمل عمودًا مائلاً من أطباق القيشاني الفخمة. يغافل الآخرين ويهمس بكلمات غزل تتعثّر في أذيالها، بينما تبدو كاثرين ملكة مطمئنة.

ـ أعجبك سيّدي؟ إنّه خاصّ بالبرج.

لا يمكن لإدارة مراقبة النادلات أن تلحظ شيئًا في كلماتها الوظيفيّة الباترة، ولم يوجد بعدُ اختراعٌ لرصد المشاعر يمكنه أن يسجّل الرفيف الرهيف لأهدابها، والغصّةَ اللاإراديّة التي تفاجئها في الحرف الأخير من ردّها المجامل عندما تضبط عينيه متلصّصتين على نهديها الصغيرين لحظة ميلها لحمل الطبق. يعبر رأسَه خاطرٌ يصيبه برجفة خاطفة.

ـ هل أبقى حتى أرى اختراعًا فضيحةً كذاك؟

fb/mashro3pdf

يحشد القليل من الجرأة التي يملك، مستأنسًا بدعم خاصّ من اللغة الإنجليزيّة، حيث يعجز اللسان عن إدراك طعم الوقاحة في اللغة الغريبة.

ـ **I like your eyes more than any ice cream.**

تردّ كاثرين بغبطة محتشمة:

ـ **Thank you, Sir.**

ـ هل من الممكن أن أحصل على رقم تليفونك؟

ـ بكلّ سرور.

أملته الرقم، وطلبت منه أن يسجّله باسم «مالو»، لأنّ الاسم الذي تحمله على شريط معدني فوق صدرها ليس اسمها الحقيقي.

ـ لكنّه سرّ. نادني كاثرين.

قالت، وابتسمت عيناها. ودّعها منصرفًا بابتهاج مضطرب، وكان أوّلَ ما فعله بعد أن أغلق عليه باب غرفته أن كتب لها رسالة دافئة، تأمّلها مرارًا، خفّف حرارتها وزادها، ثم كتم أنفاسه وضغط زناد الإرسال، ووضع أمامه التليفون مترقّبًا ردًّا لم يأته.

ـ لا يمكنها أن تردّ في وقت الخدمة.

fb/mashro3pdf

قال معزّيًا نفسه، واستلقى على السرير ضاغطًا زرّ تشغيل التليفزيون. أخذ يتنقّل بين القنوات بسرعة لم تدع لأحد ممّن فيها أو إحداهنّ فرصةَ إكمال جملة. نظر إلى ساعته حاسبًا وقت انتهاء ورديّتها والزمن اللازم للوصول إلى مهجعها. ضغط الرقم وأخذ يستمع إلى الرنين حتى انقطع، متبوعًا بطنين الصمت، كرّر المحاولة مرّتين من دون جدوى.

أمضى ليلته متقلّبًا بين مشاعر القلق والخجل والحيرة من تطفّله ومن أسباب صمتها. هل سمعَتْها إحدى الوصيفات تملي عليه الرقم، بالمخالفة لقواعد البرج التي تحرم الاتّصال الشخصي بالطارئين؟ هل عاقبوها على رنين تليفونها المريب في النزل الجماعي بعد منتصف الليل؟ هل تجاهلته بسبب الخفّة التي أبداها ولا تناسب مكانته كطارئ مميّز؟

لم يتمكّن النوم من جفونه إلّا بعدما تسلّل نور الصبح من تحت الستائر المسدلة. في الغداء لم يتخيّر طاولته إلّا بعد أن مسح المطعم بعينيه واختار القسم الذي تخدم فيه مالو. ابتسم إليها عندما اقتربت. حيّته بحيادٍ محبِط، ومع ذلك همس إليها:

ـ كتبت إليك وهاتفتك ولم تردّي.

fb/mashro3pdf

ـ لا أحمل الهاتف دائمًا سيّدي.

أجابت بكبرياء ملكة غير مجبرة على المجاملة أو تقديم المبرّرات. شدّت قبضتها على صينيّة تحمل عليها طبقًا من الآيس كريم إلى طارئ آخر، ومضت.

fb/mashro3pdf

كلّما دخل المطعم وجد مجموعة كبيرة من الرجال السمر على موائد متقاربة، ليس في صحونهم الكثير من الطعام، لا يملون الكلام، يتناقشون بصخب، وكثيرًا ما تعبر الجملة من مائدة إلى أخرى فتتكسّر الكلمات وتتناثر حول الطاولات.

يدور بصحنه بحثًا عن طاولة فرديّة، مصمّمًا على إيجادها ولو وجد العديد من الطاولات الخالية التي تتّسع لأربعة أو ستّة. يتذكّر أنّه كان في أزمنة أخرى طارئًا ضمن جماعة، وأنّهم كانوا يزغرون لأيّ طارئ يحتلّ بمفرده طاولة جماعيّة في مطعم مكتظّ. طارئ كهذا لا يُنظر إليه إلّا بوصفه قليل الحساسيّة تجاه البشر.

fb/mashro3pdf

كان الدوران، الذي يرجو من ورائه رضى البعض، يكلّفه أحيانًا ارتياب آخرين أو انزعاجهم، فالناس لا تنظر دائمًا للأمر الواحد من الزاوية نفسها. وبسبب اختلاف أنواع زوايا النظر تلك ودرجاتها، لا يستطيع إجراء حسابات الربح والخسارة لدورانه المجهد. الشيء الوحيد المؤكّد هو أنّه يكلّفه الكثير من الوقت، ومع ذلك لا يتنازل عن الانكماش على طاولة بالكاد تكفيه. ولكي يكفكف تفكير عينيه يُجهد أذنيه في التقاط فتافيت الكلام.

لا يهنأ بالسلام بمجرّد العثور على الطاولة المأمولة، فعندما يستريح رجل ما أمام طبق في ركن لامرئي من مطعم، لا يمكن أن يترك الانطباع ذاته لدى جميع العيون، فمنها تلك التي تصفعه قصدًا، وتلك التي تلمس وجهه برهافة جناح فراشة سرعان ما يتعثّر رفيفه ويضطرب بعد التلامس غير المقصود.

رجل ذاهل عمّا حوله يستقبل البحر، سيبدو في عين فراشة طارئة رجلاً رومانسيًّا يصلح صيدًا، وفي عين فراشة نادلة هو صيّاد ماهر اختار الركنَ البعيد لِصْقَ الواجهةِ الزجاجيّة لكي يستدرج فراشة خرجت من شرنقة دودة مُهمِلةٍ لم تنبِّه ابنتها إلى أنّ الزجاج الساكن بلؤمٍ يُسرِّبُ النورَ لكنّه يقتل الفراش المندفع.

fb/mashro3pdf

نظرة الذكور إليه تختلف بطبيعة الحال، وعادة ما تتباين نظراتهم إلى وجهه، من «اللكم» إلى التربيت الخفيف. ربّما يظنّ طارئ آخر أنّه لم ينزو بعيدًا أمام الواجهة إلّا من أجل الإيقاع بفراشة، وربّما يظنّ الطارئ الأحدث أنّه لم يزل يشتهي طعام اللا أحد، ولم ينزو هذا الانزواء إلّا ليُفرغ محتويات طبقه الأوّل بأقصى سرعة ممكنة لكي يتمكّن من جلب الطبق الثاني، والثالث...

وهذا ليس معناه أنّ كلّ الطارئين الذكور مبتلَوْن بسوء الظنون، فمنهم من يتفهّم وجود طارئ حزين، ويقدّر حزنه، ويرى في انكبابه على عزلته نبلاً يبتغي من ورائه حماية الآخرين من طيش نظرته الحزينة.

غالبًا، وقد عثر حالاً على طاولة مفردة، فهو ليس أيًّا من الرجال الذين قد يخطرون لخيال عين فراشة أو صقر.

قبل أن يجلس، تركت يداه الصحن لرحمة الطاولة، فارتطم بها من دون أن ينكسر، ولم تتخلّ أذنه عن ملاحقة فتافيت الكلام.

ـ هذا معناه أنّك تمنحه شرعيّة...

ـ أمانة عامّة تستدعي بالضرورة...

ـ والله هذا كلام بطّال خلاص.

fb/mashro3pdf

لا يذكر أنّه تلقّى في طفولته تأنيبًا على طبق كسره، ذلك لأنّ صحون دارهم كانت من النحاس تُفني الآكلين ولا تفنى، كانت إذا هرمت تخضرّ فحسب، مثل أسنان البشر عندما يهرمون، وكانت أسرة النحّاسين تأتي لتُخيّم في أوقات معلومة من السنة، تتولّى رفع طبقة الزنجار بقليل من القصدير والنار، ولا ترحل إلّا وقد أعادت كلّ نحاس القرية إلى شبابه.

لم يكن هناك سوى الفخّار الرخيص والنحاس، وهو لم ير القيشانيَّ القيّمَ ـ الذي يتحطّم فيكسر القلب معه ـ إلّا بعد أن فات زمن العقاب، فكان إذا كسر طبقًا يحاول إعادة تجميع أشلائه بفضول طفولي لا يخالطه أسف أو خوف. وعندما تغيّرت حياته وصار أبًا، اكتشف أنّ هناك ألعابًا مخصوصة من الكرتون والخشب والمعدن يتمّ تفكيكها وتركيبها من جديد، فألقى بالكثير من عُلبها في أسرّة أولاده لتجفيف كلّ قطرة فضول قبل أن ترشح من ملاحفهم.

بالفضول النقي الذي عرفه عند تكسير الصحون وعرفه أولاده عند بناء ألعابهم وتقويضها، يجلس الآن، يحاول تجميع كِسَرِ الكلام ليعرف شيئًا عن الطارئين السمر الذين طرأ على جمعهم. من أين جاءوا؟ وما مشكلتهم بالضبط؟

fb/mashro3pdf

بمرور الوقت كان لديه الكثير من شظايا الكلام التي زوّدته بحدس حول طبيعة معضلتهم من دون أن يفهمها، فصار يتقصّد السير بين طاولاتهم، بالاستثارة التي يمكن أن يحسّها طفل كلّما وجد قطعة ظنّها الحلقةَ الناقصة التي ستكمل بناء لعبته.

بعد طول إخفاق جلس ذاتَ غداء، بتدبير يبدو عفويًّا، على طاولة مفردة بين الطاولات التي تتقاذف الكلام. استأذنهم في التطفّل عليهم ليشبع فضولاً لديه.

تكلّم معمّرون بأسى عن نزوحهم إلى البرج من أجل التفاوض لإنهاء صراع ينهك بلدهم مترامي الأطراف، عن دُورهم التي كانت تولي وجهها للنهر، عن التماسيح التي كانت تعرف جيرانها من البشر وتداعب أطفالهم عندما يستحمّون. المفاوضون الشباب ليست لديهم وجهات نظر محدّدة بشأن نزاع في بلاد لم يروها، ومع ذلك يتحدّثون بشجن عن الألم الذي نزح به آباؤهم إلى البرج عندما كانت صحونه من نحاس.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

لأنّ الفصول لا تتغيّر في البرج، كان يرتدي الربيعَ في ألوان المايوه ويصعد إلى بركة السباحة.

البركة في الطابق السادس والعشرين تغطّيها قبّة زجاجيّة مشدودة بدعامات من أقواس معدنيّة تنطلق من القاعدة مائلةً بانسيابِ موجةٍ لتتجمّع مع غيرها في قمّة يتوّجها من الخارج صاعق يومض ليلاً لتحذير الطائرات في تلك الجزيرة الصغيرة.

تشبه القبّة الشفّافة بدعاماتها المعدنيّة مع الصاعق، نهدًا من نور تمرّدت حلمته البارزة على حمّالة من الخيوط تنتمي إلى موجة الملابس الداخليّة التي قلبت وظيفة هذه القطع الثمينة، فصارت تختفي في الأعضاء بدلاً من أن تخفيها.

fb/mashro3pdf

بركة السباحة تحت القبّة تختلف عن برك السباحة في الأندية الرياضيّة بالقدر الذي يختلف به كيلوت حداثي عن سروال القرن الثامن عشر ـ بركة رمزيّة تتّخذ شكل الهلال. ليس هلالاً منتظمًا، لكنّه مراوغ، ملتفٌّ كالأهِلّة الداعمة للنهد الزجاجي. يبدو مسطّح الماء أقرب إلى ثمرة العوجا إذا ما نظر إليه رجل، وبعين طفل يمكن اعتباره ثمرةً أكبر ـ حبّة مانجو، سنارة، توأمَ موز من إصبعين ملتصقتين، وربّما هلالاً منتفخًا من وسطه، كالذي يبدو في رسوم الأطفال، عندما يتعمّد الرسام أن يحوّل الهلال إنسانًا ينظر إلى طفل القصّة.

وسط البركة الهلاليّة وعلى أطرافها تتوزّع أربعة أعمدة ضخمة مكسوّة بالفسيفساء تنتهي قبل أن تلمس قاعدة القبّة. ولأنّها بلا وظيفة ظاهرة، ستبدو الأعمدة الأربعة، منظورًا إليها بعين طفل، كما لو كانت موجودة هكذا منذ الأزل، مثل الله والأب والأمّ والإخوة الكبار والشوارع والأسِرّة والكراسي والبحر والطيور. وفي عينٍ بالغٍ اكتشف متعة ما تسمّيه المسيحيّة «اللمس الآثم»، فهي لم تقم هنا إلّا بفضل تسامح الحجر مع المتطلّعين إلى الإثم. وفي عين محارب يريد أن يصيد ولا يُصاد، فالأعمدة ليست سوى جذوع أشجار تساعد على نصب الكمائن.

fb/mashro3pdf

النظرة للأعمدة ذاتها ستختلف بالتأكيد لو صدرت عن جسدٍ فارَقَ زمانَ المطاردة ولم يدخل السنّ التي يفقد فيها القدرة على الاحتشام. طبقًا لعين كهذه، لا حيرةَ تسبِّبها أعمدة أربعة تبدو ظاهريًّا بلا وظيفة معماريّة، فهي موزّعة بدقّة متناهية للحفاظ على ما يسمّيه أبناء ذلك العمر وبناته: الخصوصيّة.

قد يكون أو لا يكون للبركة العوجاء والقبّة النهد والأعمدة الأربعة أيّة صلة بالمصادفة التي جمعته بامرأة تلهو مع ابنها في حراسة زوجها.

المرأة السمراء، التي وجدت نفسها وحيدة بين ثلاثة رجال، لها شعر أسمر طويل، فم رفيع بشفتين نحيلتين لا تثيران أيّة شبهة، أنف مدبّب مقبول، ولها جسد بليونة تماثيل الإغريق، يرسل بإشارات بهجته الذاتيّة إلى البعيد، فلا هو بالجسد المضطهَد بتنحيف عنيف يضعه في خدمة الآخرين، ولا هو بالجسد المُعضّل بحدّة طاردة، ولا بالجسد المترهّل الذي لا نفع فيه لصاحبته أو لغيرها. يبدو أنّها لا تعاني إلّا من مشكلة واحدة ـ فهي تبدو أصغر من زوجها، وبالطبع أكبر من ابنها.

الزوج الأكثر سمرةً استوطن الصلع وسط رأسه ـ دائرة صغيرة ليس بوسعها وحدها أن تكون عقبة على أيّ طريق

fb/mashro3pdf

اختار الرجل أن يسلك. مشكلته الأسوأ أنّه سمين، ليس لديه انتفاخ التمثال الأكرش لبوذا، لكن تتدلّى على خاصرتيه طيّتان من لحم مثل زنّار، بينما تكاد فخذاه تلتصقان.

الولد ابن الرابعة، له لون ورشاقة المرأة، التي لم تتعرّض غالبًا لسؤال في سوبر ماركت أو مستشفى أو حديقة من نوع: هل هذا طفلك؟

ومن المؤكّد أنّها غفلت عنه في أماكن عامّة كما تغفل كلّ الأمّهات، وأنّ أحدًا ما كان يسحبه من يده في كلّ مرّة ويسلّمه إليها، مع توصية لطيفة بالانتباه في المرّة القادمة.

يبدو الولد نسخة منها، وكأنّها أنجبته وحدها، أو كأنّه القالب التجريبي المصغّر الذي صبّه المثّال قبل أن ينحت التمثال الأصلي. وسواء أدرك الولد هذا التماثل أو اكتشف للتوّ متعة اللمس الآثم، فقد كان ملتصقًا بها كتوأم أصغر، تسبح وهو فوق كتفيها مطوّقًا عنقها، تبدو مثل بطّة تعلّم فرخها العوم، تنزلق منه خلسة مثلما تفعل البطّة لتجبر الفرخ على مواجهة الماء، وتتوقّف لتستريح، لكنّه لا يتركها، يستدير ويحتضنها من الأمام ويقبّل رقبتها وصدرها في هجوم مرح.

fb/mashro3pdf

الزوج، الذي ترك نفسَه لمدّ الماء وجزره يؤرجحانه خلف عمود من الأربعة، يرقب ألعاب المرأة والغلام بسَكِينة، لا تنمّ ملامحه عن غيرة ولا عن رضى.

لا صوت في المكان إلّا صياحٌ مبهمٌ للصبي، مضَفَّرًا بجديلتين من أصوات الماء: إحداهما وَشِيشُ تَسرُّبِ الفائض من حافّة المسبح عبر الصفّايات المحيطة بالهلال، والأخرى طشيشٌ صاخب تصنعه ضربات ساقي المرأة القويّتين. هذه الخلطة الصوتيّة تصعد إلى القبّة وتدوِّم تحتها لتسقط وقد صارت أكثر إبهامًا. بالنسبة لأذن اعتادت الإنصات إلى الطبيعة في الخريف، سيبدو الصوت حفيفَ ورق شجر يتطاير، وبالنسبة لأذن مولعة بالضجيج قد تبدو تلك الضفيرة الصوتيّة مثل ضفيرة أخرى تمكن ملاحظتها في الكنائس التي يقال لها تاريخيّة، حيث ينجدل صوت الكاهن مع صرخات الإعجاب بكلّ اللغات مع توجيهات السائحين لمرافقيهم بشأن الزاوية المناسبة للصورة التذكاريّة.

رآها تكمن وراء عمود، مخدَّرةً من قبلات طفلها أو دائخة من السباحة في بركة صغيرة تجبرها على الدوران في لحظات. اشتبكت نظرتاهما لحظة، قبل أن يتوجّه إلى أقرب شيزلونج ويستلقي فوقه مغطّيًا جذعه بالمنشفة. رأت

fb/mashro3pdf

بشكل أوضح انسياب ساقيه الطويلتين كساقيها. من خلف العمود تسترِقُ نظرة لزوجها لتتأكّد أنّه لا يرى رعشة جلدها تحت انقضاضات نظرة رجل متناوم له لون بشرتها، وفي مثل سنّها.

لم يطل تناومه. ألقى بنفسه في الماء بجسد متباه كتماثيل مايكل أنجلو، والتقت مرّة أخرى نظرته بنظرتها. صنع احتكاك العيون شرارة مثل شرارة الحلمة التي تنبض فوق القبّة. انتفض الزوج كمن يستشعر برودة الماء للمرّة الأولى، فنَجَلَ عينيه كالسعيد بصحوٍ أنقذه من كابوس، وبهدوء من يتلمّس الصحو سبح باتّجاه المرأة والغلام.

تساهى عن نظرة الزوج المتفحّصة وأخذ يستعرض مهارته في السباحة، متوغّلاً في البركة الهلاليّة الصغيرة. لم ينطل التفاني الرياضي المدُعّى على المرأة، التي احتالت عيناها على الأعمدة ونظرتا إلى جسده اللامع تحت بلّور الماء الهائج، وتسلّمتا من عينيه رسالة الاشتهاء واضحة.

كما في الحروب، استطاع كلّ منهما تخمين قوّة الآخر من خلال المناوشة النيرانيّة الأولى، وكان واضحًا من الارتداد المتطامن لنظرات كلّ منهما، أنّهما أدركا في اللحظة ذاتها كم هما متماثلين في العمر وفي بنية الجسد.

fb/mashro3pdf

وزّع نظراته الخاطفة بينها وبين الزوج وقد برزت له قليلاً من خلف العمود مع «التمثال» الصغير، الذي بات منسيًّا ومقصيًّا عن أصله، وبدأ يتحوّل عن التقبيل إلى الصفق على صدرها والعبث العدواني بحمّالتيه. كانت نظرة الزوج تنطلق من مكمنه إلى مكمن الزوجة وتتحوّل إلى التعاطف مع الصبي الذي توشك أمّه أن تضيع من بين ذراعيه، بينما تخلّت المرأة عن الحذر وركّزت بكلّ قواها نحو السابح، تتشابك نظرتها مع نظرته المتأنّية، التي أحبّتها على مضض، لأنّها أحسّت فيها فخْرَ صيّاد مطمئنّ إلى إحكام الفخّ حول الطريدة.

دار دورة للتمويه، محاذرًا حتى لا ينطح عمودًا، وعادت المرأة للانتباه إلى طفلها، وعاد الطفل إلى مرحه، لكنّها لم تسمح له باعتلاء كتفيها. أخذت بيده ليسبح بجوارها، فظهرت رحابة ظهرها التي لم تبد من قبل. وكلّما كفّت عن الحركة كان الولد يتوقّف ويهجم موسِّعًا من فتحة صدرها، يلطمها في مفرق النهدين فتضحك، بينما تبني عيناها جسرًا لنظرة السابح.

استرَقَ نظرة إلى الزوج، قبل أن يعبر جسر نظرتها التي قادته إلى جيدها حيث تركت أصابع الغلام علاماتها. نظر الزوج بأسفِ مالكِ كنز يعرف أنّه لن يستطيع المحافظة

fb/mashro3pdf

عليه من دون التنازل عن بعض الصدقات والهدايا والتغاضي عن بعض السرقات الصغيرة.

حُزْنُ عيني الزوج المستسلمتين هزم نظرته الذئبيّة. سبح مخْزيًّا حتى اتّخذ لنفسه ساترًا خلف عمود، فتوقّفت الطارئة عن السباحة وكفّت عن المرح مع طفلها. فكّت حمّالتيها واحدة بعد الأخرى متظاهرة بالتأهّب لإحكامهما. أخذت توسع لصدرها وتمدّ جسر نظرتها المائل نحو السابح، ثم تَجْفَل من التصادم الفجائي بين عيونهما. تُسارع إلى زمّ الرباط، بينما يتلهّى الولد بجذب البُكلة الخضراء التي تلمّ شعرها، فتهزّ رأسها تملّصًا وهو يصرّ. وعندما انتهت من ربط حمّالتيها، كانت البُكلة قد صارت بيد الولد وانتفش شعرها فوق الماء. تطارد «تمثالها» الصغير وتستخلص منه قيد الشعر بمرح وتعيد ربطه.

خرج من الماء قفزًا إلى الحافّة مستعرضًا رشاقته في القفز، بينما امتدّت يداه إلى المايوه تقلّل من التصاقه بأعضائه. قدّر أنّ استلقاءه على الشيزلونج سيتيح له زاوية رؤية أفضل، في حين استراح الزوج لخروجه فتسلّق السلّم منسلًّا من الماء وجفّف جسمه والتفّ بالمنشفة وتوجّه إلى المرحاض. بدت مشيته متمهلة كأنّه يتقهقر. اختلس المتناوم على الشيزلونج النظر إلى ظهر الزوج ليتأكّد خلوّه

fb/mashro3pdf

من عينين، ثم انتبه إلى أنّ جدار الزجاج والمعدن يعكس صورته أيضًا ويكشف تلصّصه، إذ يتابع الزوج بعين ويرسل الأخرى من خلف العمود ترقب صورة الزوجة منعكسة على زجاج القبّة مثل لؤلؤة في محارة.

لا بدّ أنّ بوذا الأكرش اكتفى بإفراغ نصف مثانته، إذ عاد مسرعًا. سدّد نظرته باتّجاه نظرتيهما المتشابكتين، فلم يشعرا بها إلّا بقدر ما تشعر علبة هديّة بشريط الزينة الذي يلفّها.

فكّ الزوج نظرته من فوقهما وانزلق إلى الماء. أرسل بنظرة إلى ولده وأدرك أنّه لم يزل صغيرًا، لأنّه لا يبدو منتبهًا لتشابك النظرات من فوق رأسه.

شرعت المرأة في السباحة على ظهرها، وطفا ثدياها مبتهجَيْن على سطح الماء. خرج من الماء وتمدّد على الشيزلونج مرّة أخرى. أرسل بادرة سلام إلى الزوج، في نظرة تمكّنت من تفادي الأعمدة والوصول إلى الرجل على الطرف الآخر من الحوض الهلال.

لم يقبل الزوج بادرة السلام، فأهمله وارتدّ ببصره يبحث عنها بقنوط فاعلِ خير لم يَلْقَ الجزاء الحسن الذي يتوقّعه. تهشّمت نظراته وهي تحاول تفادي أعمدة بدأت تحارب مع الزوج. أحسّت عيناه باليأس وبدأتا بالتناوم،

fb/mashro3pdf

لكنّ جفنيه كانا يتواربان تلقائيًّا مع اهتزاز الهواء بفعل أقلّ حركة لجسم يقترب. ويبدو أنّ شررًا آخر تكسّر على الجهة الأخرى من الأعمدة وأحنق المرأة وحملها على السباحة، ففاض الماء وفتح وشيشُه عينيه المتناومتين. أظهر الاقتراب تفصيلة أخرى بالبركة، حيث يوجد قوس فسيفسائي تحت سطح الماء بثلاثين سنتيمترًا يحتجز ركنًا من البركة كمسبح خاصّ للأطفال. لم ينتبه لوجود الجدار الغاطس إلّا عندما جلست عليه المرأة.

بنصف التفاتة رمقته من زاوية عين واحدة ظلّلتها خصلة شعر شاردة، لكنّها تمكّنت من رؤيته في استلقائه المحسوب. استجاب جلده لنظرتها بارتعاشة مبتهجة.

جاء نادل بصينيّة عليها مشروبات للأسرة، خرج بوذا من الماء مؤشّرًا له على طاولة محدّدة تجعل من الأعمدة نقاط دفاع متتابعة. تبعته الزوجة، بينما بقي الطفل في المسبح يواصل قذف كرة صغيرة والتقاطها. لم تشرب المرأة شيئًا، جلست لحظات، وسحبت منشفتها إلى الشيزلونج الثالث بعد الطاولة التي يواصل الزوج جلسته أمامها متصفّحًا مجلّة مع كأس عصير البرتقال. تسلّلت نظرة من بين رموشه تزن جسم المستلقية، واصطدمت بنظرتها المتسلّلة نحوه بينما كانت تلفّ جسمها بالمنشفة

fb/mashro3pdf

ببطء متعمَّد يتيح لعينيه تأمّل فخذيها، واثقة من جمالهما.

ـ أخذت هذه المسافة لأتفادى دفاعات الأعمدة، فلا تتناوم وتنظر مثل لصّ:

أنّبت نظرتها الثابتة عينيه المتسلّلتين.

بدا جسمها من تحت المنشفة أكثر ثباتًا وصراحة ممّا هو عليه تحت الماء الرجراج، لكنّ المسافة في المشاعر بين النظرات هي التي بدأت تصير رجراجة. لم يصلا إلى شعور واحد في اللحظة ذاتها: تُشْرِع نظرةَ معانَقَةٍ فتَخرج يدٌ متحفّظة من عينه الحيية تردّها محبطة، ثم يستجمع شجاعته ويعود ليتفحّصها بنهم وقح فتكنس أثر عينه من فوق جسمها بنظرة تقترب من الازدراء، تستعرض زاوية انحناءة ركبتيه المشرّعتين وتنظر إلى ما يبدو من الفخذ من خلف الساق، فيمدّ ساقيه وينشر فوقهما المنشفة.

زفرت بنفاد صبر ومدّت يدها إلى الشيزلونج المجاور والتقطت منشفة إضافيّة. تكوّرت مثل جنين وأحكمت دثارها بالمنشفتين وأغلقت عينيها. نامت على جنبها الأيسر، بحيث تترك وجهها في مرمى نظراته، أو هكذا يمكن أنّه فكّر بالمرأة التي رآها تستدير وتوليه وجهها بشجاعة تامّة. ولكن، ربّما كان الأمر منظورًا إليه من جهة الزوج، على غير هذا النحو، فلا يمكن لطارئ أن يعرف

fb/mashro3pdf

أسرار علاقة طويلة من مجرّد رؤية الاتّجاه الذي اتّخذته المرأة عند استلقائها، حيث من المحتمل أن يكون ظهرُها أكثرَ ما يحبّ الزوج منها، وقد تركت أمامه ردفيها الممتلئين، بينما ولّت وجهها الدقيق صوب طارئ لتترك تحت عينيه أنفًا مدبّبًا وعينين غير مميّزتين وشفتين نحيلتين لا تحضّان على التقبيل.

ربّما كان هذا هو الحكم الصائب على الحركة التي أتتها المرأة إذا استندنا إلى نظرة الزوج المغتبطة.

منحت الصبيَّ قبلة على فمه المبلل بالعصير. اقتنص القبلة وعاد إلى الماء، وأغلقت هي عينيها. لحظات واستغرقت في النوم، وكان من السهل معرفة هذا من خلال انتظام تنفّسها وبطئه.

لم يستطع تفسير ما أحسّه في تلك اللحظة، عندما أوصد نافذتي وجهه مقلّدًا المرأة. هل كان ممتنًّا لأنّها يمّمت وجهها نحوه؟ هل كان مخذولاً من إغلاقها عينيها؟ هل أحسّ بالغبطة لإعفائه من التوتّر؟ هل كان راضيًا لأنّه كفكف عينيه بكرم لم يتوقّعه الزوج؟

أيًّا كان نوع المشاعر التي أغلق عليها عينيه، تحوّل تناومه إلى نوم حقيقي، لذيذ، لا يعرف كم دام قبل أن يوقظه سعال المرأة المؤلم. نظر باتّجاهها فوجد الزوج واقفًا

fb/mashro3pdf

بجوارها يسند جذعها بفخذه بعد أن ناولها كوب ماء. تعمّق القلق في نظرته التي انسحبت تجرّ أذيال الهزيمة.

ـ ليس لك أن تبدي هذا التعاطف مع زوجتي...

قالت نظرة الزوج الزاجرة، فأدرك كم هو وحيد، لكنّه لم يتمكّن من السيطرة على عينيه التي سرعان ما عاودت التسلّل. رأى الزوجَ يهرول، يلتقط طاولة صغيرة يضعها بجوارها، يسحب من يدها الكوب ويضعه فوق الطاولة، يفعل هذا بينما يتطلّع نحوه مشمئزًّا من نظرته المبتهلة المثقلَة بالأمنيات، التي لم ير الزوج فيها سوى وقاحة العودة إلى المنازعة. عبث بشعر زوجته مؤازرًا وعاد إلى طاولته ممسكًا بالمجلّة يقلّب صفحاتها من دون أن يستوقفه عنوان. تحوّل سعال المرأة إلى أنين خافت، ثم استغرقت في النوم مجدّدًا، مطوِّقة بذراعها الصبي الذي خرج من البركة مستلقيًا ببله في حضنها.

أرهقه تنقيل نظرته بين القارئ والنائمة، فعاد إلى التناوم مرهِفًا أذنيه. دغدغت البرودة اللذيذة جسمه، ولم يعرف كم مضى عليه من الوقت وهو يتنفّس بانتظام قبل أن يستيقظ فيجد نفسه وحيدًا، لا نأمَةَ إلّا صوت خرير فيضان البركة الهلاليّة تحت القبّة النهد.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

ثلاث ساعات استغرقها في غداء اليوم. طلب قهوة تركيّة أتته مكنونة في كنكة نحاس صفراء، بدلاً من قهوة اللا أحد الأميركيّة المهتوكة في دورقها الزجاجي. بدأ بتذوّق فنجانه مع الصحيفة، يتحيّن الفرص لمراقبة الموائد من حوله ـ نظرتان لكلّ مائدة، نظرة متفحّصة لرجل يستطلع بها درجة غيرته، ونظرة ذابلة ومثقلة بالاشتهاء يُسرّبها باتّجاه أنثى.

يحبّ يوم العطلة المعروف في البرج باسم «اليوم العائلي»، يرى فيه صغارًا فيتذكّر أنّ أصل الطارئ طفل، يرى رجالاً ونساء، حيث تأتي أُسر من المدينة للاستمتاع بيوم البرج المميّز، الذي يُخلى فيه الركن المطلّ على البحر من الطاولات كي يُخصّص للأطفال بلعبهم. وعلى

fb/mashro3pdf

طاولة العرض تتراجع سيطرة اللحوم لصالح أنواع الأسماك الفاخرة التي تقدّم في ذلك اليوم بوفرة مهرجانيّة تصل بالإنسان الباحث عن أناقة المأكل إلى حدّ الزهد، ولكنّها تمثّل بادرة ضيافة جيّدة من إدارة البرج تحقّق الصورة المثلى ليوم عطلة منظورًا إليه من وجهة نظر الإدارة.

ـ نفهم ما يعنيه يوم عطلة.

غمزة تشجيع إداريّة قد يضيّعها الطارئون أزواجًا، لكنّها تصل على وجهها الصحيح إلى كثير من الوحدانيّين، الذين يعرفون لماذا تسخر منهم الإدارة بتجديد قدرتهم العشقيّة عديمة النفع.

لكنّه، على العكس من ذلك، لم ينظر بأدنى ريبة إلى ذلك التدبير، بل رأى في اليوم العائلي بنسائه المسترخيات، النسمةَ التي تلطّف وحشته. عندما كان مخلصًا لرغباته أكثر من إخلاصه لما تسمّيه الأوساط الراقية «اللياقة الاجتماعيّة»، كان يقول بلا مراوغة إنّ ما يميّز ذلك اليوم هو الأثداء العارية أو التي تشفّ من تحت ليونة رداء قطني أو كتّاني ناعس كعين المرأة المغتبطة. الآن يقول باختصار إنّه اليوم الذي تعود فيه المرأة أنثى.

ـ ليس للمستعجل جنس.

يقول، متمنّيًا أن يدوم اليوم العائلي طوال الأسبوع.

fb/mashro3pdf

في الأيّام العاديّة تركض الطارئات بأزياء رسميّة صارمة ووجوه متألّمة تحت ثقل الخضاب والروائح الصناعيّة. يمررن بالمطعم متعجّلات، يتناولن غداءهنّ ـ منفردات أو مع رجالهنّ ـ بلا ابتسامة، وسرعان ما ينصرفن بلا أدنى رغبة في الإحسان إلى عين مستجدية. في اليوم العائلي، لا يحتاج الطارئ المستوحِش إلى نفَس عميق لكي يتعرّف أنفه على رائحة المتعة التي تملأ المكان. تبدو الطارئات فائضات الأنوثة، لا يضعن المساحيق ولا العطور التي تكبّل الروائح الأصليّة لأجسادهنّ، يتحرّكن بعفويّة كأنّهنّ في البيت، يدلّلن أطفالهنّ ثمرات أوقات الفراغ الحلوة.

منظورًا إليه من طارئ سعيد وغيور، بدا مكشوفًا، إذ يمضغ ببطء ويبتلع مرغمًا لسدّ جوع غير موجود أصلاً، بينما اعتبرته عين أنثويّة فارقت زمن التوقّعات، متطفّلاً بائسًا.

عبرتها عيناه مصادفَةً ولم تنبسا، لكنّ المرأة كانت تتعمّد أن تنظر إليه بتأفّف حرصت على أن يلحظه مرافقها أكثر ممّا يلحظ هو. ردّ عليها بنظرة مستهجنة.

ـ تعرفين زيف ادّعائك.

أسرّ إليها بنظرته، متجاهلاً ما رآه في عينيها من جمر ينتظر نفخة لتخليصه من طبقة الرماد، فهي ليست من النوع

fb/mashro3pdf

الذي يستهويه، ولم يكن ليهتمّ بها ولو قابلها في العشرين.

تماديًا في الخطأ، ظلّت المرأة على تأفّفها، فوضعت نفسها في المكان الصحيح الذي لا تتمنّاه، إذ لا تتعامل المرأة الجميلة بمثل هذا العداء مع نظرة الإعجاب، لأنّ الجمال بطبعه يحبّ الفخر ويتطلّع إلى التقدير، وبوسع الجميلة وحدها أن تردّ على نظرة الإعجاب بامتنان، إن لم يكن صادقًا فمن باب المجاملة.

دارت نظرته تمسح المكان متظاهرة بالبحث عن نادل، لكن عينيه اللتين كانتا تحوّمان مثل نسر، سرعان ما ثبتتا على ارتفاع منخفض فوق «بطّة» تجلس القرفصاء، تداعب طفلها وطوقُ بلوزتها يكشف عن الثديين. التقت عيناها بعينيه، جمعت طوقها وقامت تشدّ ذيل البلوزة ليلتقي بزنّار البنطلون المنزاح قليلاً للأسفل، لتستر خصرها المبتهج فوق مفرق الردفين الساهيين.

عادت إلى طاولتها. مالت على أذن رجلها تهمس، وكلّما بالغت في ميلها نحوه كان ثدياها يبالغان في الانسكاب. قام الزوج إلى مائدة الحلويات، جلب طبقًا، وضعه أمامها.

بزاوية صغيرة من عين واحدة، يتابع نقرات شوكتها على قطع الحلوى. كانت نظرتها تلتقي مع نظرته في

fb/mashro3pdf

منتصف المسافة، كمضيف كريم يلاقي ضيفه خارج البيت. تأخذ بنظرته المتحفِّظة إلى حيث سرّ فتنتها، بينما ترتفع يدها بقطعة حلوى إلى فم رجلها.

ـ من قال إنّ الجمال بريء؟

حتى المرأة المغتبطة يمكنها أن تنطوي على الشرّ وتجاري نظرة الإعجاب، رغبةً في مغامرة لن تقدر عليها، أو رغبة في السخرية من الناظر، أو لمجرّد التسلية بلعبة وجدتها في طريقها، وربّما رغبة في استثارة رجلها.

حاصرَتْه كلُّ رغبات جمالها الشرّيرة، ووجد نفسه مشكوكًا من عينيه في سنّارة امرأة سعيدة، هو الذي دخل المطعم صيّادًا.

أحسّ بالتعب من اللعبة، التي جعلته يُكره نفسه على طعام لا يريده. طلب بلطف من مالو فنجان قهوة جديدًا. ردّت بالابتسامة الوظيفيّة المنضبطة، بينما كان بوسعه أن يتبيّن من تحت ابتسامتها ظلّ سخرية شامتة. وعادت أسرع ممّا توقّع.

ـ شهيّة طيّبة، سيّدي.

قالت بحياد عابس وهي تصبّ فنجانه، بينما شفّ جفناها المرخيّان عن دلال جمال كسير. بدأ ارتشاف

fb/mashro3pdf

القهوة متابعًا توزيع نظراته بين عناوين الجريدة وأثداء النساء. أحسّ بلاجدوى تخبّط عينيه في الجمال المحروس برجال آخرين. انسحب مغادرًا إلى غرفته. توجّه مباشرة إلى سريره. تجرّد من ملابسه وألقى بها على الأرض. اندسّ تحت اللحاف وأغفى سريعًا، بتأثير خدر الغداء غير المعتاد.

لم يعرف كم نام في تلك الظهيرة، عندما رأى فتاة خدمة الغرف تقف على بعد خطوة من سريره، تعتذر بلطف لا يتجاوز حدود التوضيح.

ـ عذرًا سيّدي، لكنّك لم تضئ علامة «ممنوع الإزعاج». هل أعود في وقت آخر؟

ـ لا، انتظري في الخارج دقيقة، سأرتدي ملابسي وأغادر.

ـ شكرًا سيّدي.

لم تخرج الفتاة، لكنّها انسحبت إلى الحمّام وأغلقت بابه عليها. والتقط الطارئ ملابسه الداخليّة من الأرض وارتداها تحت اللحاف ثم مضى إلى بنطلونه وتيشيرته المنشورين على كرسي الفوتيه. تطلّع إلى الأفق من خلف الزجاج، وفكّر: أين بوسعي أن أذهب الآن؟!

fb/mashro3pdf

خرجت الفتاة من الحمّام تحمل سلّة المهملات، لتفرغها في ترولي النظافة خارج باب الغرفة المفتوح.

ـ هل يمكن أن أبقى؟

ـ بالتأكيد سيّدي.

أخذ مكانًا قصيًّا، على طاولة الطعام خلف القاطع الخشبي الذي يفصل مكان القعود عن مكان الاستلقاء بالغرفة الكبيرة. فتح كتابًا متظاهرًا بالقراءة، بينما يرمقها من خلف الكتاب بين لحظة وأخرى.

تبدو في العشرين، لكن وجهها الأسمر، لا الأصفر، مرصّع بحبوب شباب. شفتاها الممتلئتان محاطتان بزغب طفولي يكاد يُرى حليب الرضاعة فوقه. قامتها المتوسّطة تضعها بين بنات الجنسيّة الأبرز في طاقم الخدمة بالبرج، لكن جفونها المتوسّطيّة تباعد بينها وبين الملامح الشرق آسيويّة. وجد أنّ حيرته تصلح مدخلاً لحوار معها.

ـ فيليبينيّة؟

ـ لا، أنا من نيبال.

ـ نيبال! الجميلة مثل حيّة.

قال، بينما يرسم بيديه في الهواء شريط الأرض النحيل الذي تنتمي إليه الفتاة.

fb/mashro3pdf

نظرت مستغربة، وقالت كأنّها تحدّث نفسها:

ـ البلاد الجميلة لا تجعل من أبنائها طارئين في بلاد أخرى.

نظر الطارئ إليها لاهثًا، ولم يقل شيئًا.

ـ وأنت، من أين يا سيّدي؟

سألته الفتاة، بينما كانت تنحني على السرير تنفض اللحاف لتزيل فوضاه. تفحّصها مستغرقًا في دقّة جسدها. استدارت إليه فجأة، وكأنّ نظرته لسعت المؤخّرة الكادحة. سألته:

ـ هذا كاف أم أغيّر الشرشف سيّدي؟

ـ غيّريه، إن كان ممكنًا.

يرى الشرشف ناصعًا، ويبدو أنّ الفتاة ذاتها ترى هذا، وتدرك من توتّر صوته أنّ تغيير الملاءات مجرّد غطاء لرغبته في استبقائها وقتًا أطول.

ـ بالتأكيد، سيّدي.

أجابت بتسامح حزين وخطت نحو العربة بالخارج، جلبت ملاءات وكيسًا جديدًا للحاف، وانحنت مرّة أخرى على السرير في ردائها النبيذي، لكنّها أعطت الطارئ وجهها هذه المرّة، وبدا نهداها الصغيران من فتحة صدرها

fb/mashro3pdf

أسمرين دقيقين وصلبين كبشائر التين.

ـ تعيشين وحدك؟

ـ مع جدّتي سيّدي.

ـ متى جئتِ إلى هنا؟

واصل طرح الأسئلة، وأخذت تجيب باقتضاب. ومن تسارع أنفاسها أدرك كم تبذل من الجهد لتتحاشى التقاء نظرتها بنظرته. كانت التينتان تتفتّحان بينما تجرّد الوسائد من أكياسها. بتأنّ انتهت من إعادة السرير مشدودًا ناصعًا، وتوجّهت إلى ركن المشروبات بالغرفة. ضِيقُ الممرّ جعلها تحفّ به. وقف مقتربًا منها، بينما تغسل الأكواب.

ـ وأنتَ سيّدي؟

سألت الفتاة بتهدّج بعد أن لامس دفء زفيره عنقها.

ـ لا أتذكّر.

نظرت إليه نظرةً مستطلِعةً يمكن لطارئ وصل بالأمس فقط أن يرى الاستعجاب في عمقها، لكنّ طارئًا قديمًا ناسيًا هو الآخر من يكون ومتى جاء، سيعرف أنّ الدهشة ليست ما يجلِّل عيني الفتاة العسليّتين.

رفع يديه يحاول إفهامها، فأفزعتها حركته في البداية، وعندما اطمأنّت إلى أنّ يديه لم تمتدّا تحرّشًا بها نظرت

fb/mashro3pdf

إليه مستأنسة. كان بمقدور عين محايدة أن ترى في تحديقتها تقبّلاً أو عطفًا، لكنّه ـ بتأثير وحشة اليوم العائلي ـ اعتقد أنّه لم ير في عينيها إلّا الإعجاب. مسَّد غرّته مسترشدًا بصورته في زجاج الواجهة، وسألها:

ـ ما اسمك؟

ـ إويسا سيّدي.

ـ اسمك جميل مثل ملحمة.

ابتسمت وترطّبت عيناها.

أحسّ بنشوة الاتّصال الجسدي عندما رأى اضطرابه يسري إليها فيضاعف سرعة تنفّسها. تصلّبت التينتان وبدتا تحت السترة النبيذيّة أكبرَ ممّا قَدَّر من قبل، ولم يعد للزغب حول شفتيها من أثر. رمقت تلصّصه على صدرها وتشاغلت بفحص ما تبقّى لديه من أكياس الشاي والبنّ والنعناع والسكّر، وانطلقت إلى الترولي تحضر المزيد منها، بينما كانت الأسئلة الأكثر حميميّة حول حياتها تتدافع مضطربة من فمه.

ليس من قواعد البرج أن تهمل الخادمة سؤالاً لطارئ، على أن تجيب بحياد يضعه على المسافة ذاتها التي كان عليها قبل أن ينقر طبقة الصمت الصلبة كقشرة جوزة

fb/mashro3pdf

الهند. لكنْ، من قال إنّ التعليمات يمكن أن تطبّق حرفيًّا في ساحة حرب أو غرفة في برج مهما كانت صرامة القيادة؟!

ـ هل تريد شيئًا آخر؟

سألته بصوت متكسّر. وطالت لحظة تردّده في تفسير سؤالها: هل هو سؤال مهني عادي أم دعوة للتخلّي عن الحذر؟ تعالت في صدره ضربات الطبول التي اختفى تحتها ردّه المتهدّج مستسلمًا:

ـ المزيد من زجاجات الماء، فأنا أشرب أكثر من المعتاد.

ـ حاضر سيّدي.

انطلقت وعادت بأربع زجاجات بين راحتيها، تلقّفها متعمِّدًا لمس أصابعها. لمع لون العسل في عينيها باضطراب مبتهج.

ـ شكرًا سيّدي، وقت طيّب.

شكرها مبتسمًا، وتبعها إلى الممرّ. أغلق وراءها الباب وضغط زرّ «ممنوع الإزعاج». ألصق وجهه بعدسة الباب يتابعها تجرّ عربتها بينما كان لهاثه يتباطأ.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

بعد قيلولة أرّقها صراخ الغرفة المجاورة، خرج حانقًا قاصدًا صالة الرياضة. لم يتربّص بعدسة الباب انتظارًا لوقع كعب أنثوي يتّجه إلى الباحة المرمريّة التي تتوسّط صفّي المصاعد. فتح باب غرفته متعجّلاً، فاصطدمت نظرته بالظهر المتقن لـ «نصب» أنثوي في بلوزة سوداء وبنطلون جينز فوق حذاء عالي الكعب يزيد قامتها المنتصبة سموًّا. أحسّ باتّقادِ جذوةٍ لم يكن يعرف أنّها لم تزل داخله تحت رماد السنين. التفتت المرأة بسرعة منتفضة من ضربة عينيه في ظهرها. همّ بالاعتذار، كأنّه صدمها حقيقة، لكنّها ابتسمت له كما لو كان رفيقَ غرفتها الذي سبقته بخطوة إلى المصعد.

لم يعوّل يومًا على لون الشعر، فصبغات المصفّفين

fb/mashro3pdf

عديمة المنطق، بوسعها أن تمنح امرأة اسكندنافيّة شعرًا مجعّدًا فاحم السواد. لا يدلّ لون الشعر إلّا على مزاج صاحبته.

كان اصطدام النظرة بالكتفين المكشوفتين كافيًا لرؤية وهج السمرة النحاسيّة ـ سمرة مشربة بحمرة مع شفتين مستوفيتين حقّهما من الوجه وعينين سوداوين وأنف دقيق يوزّع انتماءها على مساحة شاسعة من آسيا وأفريقيا وأوروبا والأميركتين. لكن تميّز الردفين يرشحها لأن تكون أميرة أفريقية من قرب خطّ الاستواء، ففي تلك البلاد فقط تُكره الفتاة على تناول أطعمة محدّدة والنوم على بطنها كي تتيح للقوس الأنثوي أن يتمدّد على هواه أسفل الخصر الضامر، ويتيح لصاحبته الاستبداد بالرجال بقيّة عمرها.

تقدّم وضغط زرّ الصعود، بينما عادت المرأة تغمره بالابتسام. لم يستجمع الردّ على ابتسامتها سوى بابتسامة مرتعشة صلبها على شفتيه. أخذ يجتهد لكي يخفي اضطراب صدره تحت الفانلة الرياضيّة البيضاء، ولم يجرؤ على تطوير الابتسامة إلى كلمة. اختفت كلّ الكلمات البلهاء التي يتبادلها الناس في بداية التعارف. ربّما كان ما يبحث عنه أكبر كثيرًا من جملة عن الطقس، لكنّه لم يجد الاستثنائي ولا العادي، وكأنّه ارتدّ إلى ما قبل اختراع اللغات.

fb/mashro3pdf

طوّقته بعينيها المبتسمتين فزادته اشتعالاً. خطت خطوة مكّنتها من كبس زرّ الاستدعاء مجدّدًا. استدارت واضعة يدًا في مفرق ثدييها الصلِفين تحت البلوزة.

ـ المصعد يتأخّر كثيرًا.

لم يعرف وجهها التذمّر وهي تنطق بالكلمات التي ينطقها المنتظرون عادة بنبرة غاضبة.

ـ فوق أم تحت؟

ردّ بصوت مدعوك تحت ضربات أنفاسه. في الحقيقة لم يكن ردًّا، بل حبلاً حاول أن يعرقل به حركة الفَرَس قبل أن تجمح هابطة، لم يكن هناك داع للسؤال لأنّه يرى على أيّ زرّ وضعت يدها.

ـ نازلة.

قالتها بجدِّيّة من دون أن تتخلّى عن ابتسامتها. انفتح باب المصاعد المتّجه لأعلى، وخطا الطارئ باتّجاهه، وقال كمن يطلق آخر ذخيرته:

ـ فوق أفضل.

نظر ليرى إن كانت فطنت أخيرًا إلى الإيحاءات التي تعمّدها، وتحرّكت يده من تلقاء ذاتها تدعوها. فوجئ بها تتبعه في استسلام. هل استطاعت الإنجليزيّة أن تنقل

fb/mashro3pdf

التلميح الجنسي، أم أنّ عينه النهمة كانت السبب في استجابتها غير المتوقّعة؟

كاد يصرخ دهشة، مثل طفل فوجئ باللعبة تعمل. انغلق الباب فعبقت العلبة الصاعدة بعطرها القوي. مرّت الثواني كأنّها دهر قبل أن يتحرّك المصعد. يختلس النظرات فتشتبك عيناه مع العينين الباسمتين على مرايا الجدار. اهتزّت العلبة للانطلاق وأخذ العدّاد يقلب أرقام الأدوار بسرعة زادت توتره وجعلته يشعر بأنّ الحبل الذي أراد أن يقذف به شركًا للفَرَس يلتفّ حول خصره ويطوّق ساقيه هو.

ـ من أين أنت؟

اجتهد ليسأل بينما يمسح العرق الناضح فوق شفته العليا، وأجابت بهدوء.

ـ من صقلية؟

لم تقل إيطاليا. ويمكن لأذن قليلة العناية أن تعتبر الجواب تبريرًا لسمرتها، بينما لن تخطئ أذن تحترم النَّبْرَ رنّةَ الفخر في صوتها، ولم يكن لعين أن تتجاهل اتّساع ابتسامتها وتشامخ صدرها مع ضغطها على الحروف. اعتبر ردَّها محاولةً لتذكيره بأمجاد أسلافها القراصنة في القنص، فازداد الحبل إحكامًا حول جسده. بذل محاولته الأخيرة

fb/mashro3pdf

للتماسك آملاً في التوازن.

ـ أوو! بلدك ساحر!

أحسّ بسخافة ردّه، متحسّرًا على ضياع فرصة تحسين موقعه، لأنّ المصعد قطع الطوابق الأربعة بين غرفته والطابق الرياضي في ثوان، وانفتح الباب فاندفع البخار المُعَبَّق بروائح الصابون إلى الداخل مختلطًا بعطرها الحسّي. عندما همّ بالخروج واستعدّت للتلويح له، تراجع في اللحظة الأخيرة متقهقرًا الخطوة التي خطاها، فلمعت عيناها وأفسحت له. انغلق الباب وبدأ المصعد بالنزول.

كان يبحث عن كلمة في رأسه المضطرب يستأنف بها التعارف. هل يسألها عن الاسم؟ هل سيكون فجًّا لو سأل عن رقم الغرفة؟ هل يحدّثها عن رحلة قام بها إلى بلادها؟ كان كلّما اقترب من خيار عاد واعتبره الأسوأ، والمصاعد لا تحترم المتردّدين. توقّفت العلبة فدخل رجل آخر وألقى بالتحيّة. ردّت مبتسمة. قدّر الطارئ ابتسامتها للرجل الجديد وهمهم في أعماق رأسه:

ـ هو إذًا رفيقها يلحق بها.

استراح لهذا الخاطر، وكأنّه تخلّص من عبء. بدأ إيقاع صدره في التباطؤ، وصامتًا كان يرقبها مباشرة ويرقب الرجل الآخر عبر الجدار المفضّض، وعندما وصل المصعد

fb/mashro3pdf

إلى الأرض انطلقت المرأة والآخر وراءها. تبعهما متقهقرًا خلفهما خطوة. كانت تضرب الأرض بحذائها العالي فتهتزّ مؤخرتها القويّة ككفل فرس، ويتقهقر الرجل خطوة ثم أخرى، حتى صار بمحاذاته، وأخذت المسافة تتّسع بينهما معًا وبين المرأة.

سريعًا قطعت البهو واندفعت إلى تجويف الباب الزجاجي الدوّار، وفي لحظة صارت على الجانب الآخر وفتح رجل الأمن لها باب السيّارة المنتظرة. تبادل الرجلان النظرات في صمت. انسحب هو إلى بهو المصاعد، وعلى الواجهة المعدنيّة اللامعة رأى الرجلَ الآخر يقف خلفه. تبادلا الانحناء خفيفًا ودخلا إلى جوف العلبة المعدنيّة. كبسا رقمي طابقيهما وتعلّقت عيونهما باللوحة المضيئة خلف الباب يتابعان العدّ التصاعدي.

fb/mashro3pdf

وهنت ذاكرته إلى حدّ نسيان حكمة البرج الخالدة:

ـ لا تجمع بين مفتاح غرفة الصمت وآلة الكلام.

يدير العبارة في رأسه بلا توقّف طوال استعداده لمغادرة الغرفة: عندما يجلس على قاعدة التواليت، وهو يغسل أسنانه، يحلق ذقنه، تحت دوش الماء الساخن... يجهر بها أثناء ارتدائه ملابسه ويضغط على الحروف بالكيفيّة التي تتلوها عليه كاهنة الاستقبال. بمجرّد أن يغادر الغرفة يضع البطاقة الممغنطة مع الهاتف المحمول في يد واحدة، ولا ينتبه إلى الخطأ إلّا عندما يرفض باب الغرفة الفتح عند عودته، فيكون عليه النزول إلى الاستقبال لإعادة تفعيل البطاقة.

fb/mashro3pdf

في كثير من الأحيان كان يُفسد الشحنَ بمجرّد انصرافه، فيعود بعد لحظات ويتلقّى الخدمة ذاتها بالابتسامة الواسعة نفسها.

صحيحٌ أنّ التذمّرَ لا يعرف طريقَه إلى وجوه طاقم الخدمة، لكنّ مشكلته في ذلك المساء أنّه وجد نفسه مبلّلاً وشبه عار وسط البهو المزدحم. كان منذ زمن قد بدأ يتصرّف كصاحب برج، يصعد من غرفته إلى المسبح مرتديًا المايوه وفانلّة بلا أكمام، منتعلاً خُفَّ القُنَّب المخصّص للاستعمال داخل الغرفة.

بعد ساعة من السباحة عاد إلى غرفته، لكنّ الباب صدّه، فاضطر للنزول إلى البهو يقطر ماءً، متفاجئًا بحشد ضخم أصابه بخجل ضاعف إحساسه بالبلل. كان رجال الحشد طوالاً إلى درجة قوّضت تباهيَه بطوله وحَرَمَتْه من رؤية كريستين.

مدّ ذراعه عن آخرها بالبطاقة إلى حيث اعتادت أن تقف، فلم تبلغها يده، فقد كانوا يتسابقون من أجل التسجيل واستلام بطاقات مشحونة تفضي إلى غرف. لم يكن بين الحشد أطفال، فقط قليل من النساء، وليس في العيون ذلك الذعر الذي يبدو في عيون من يسمّيهم التليفزيون «النازحين» أو «اللاجئين» أو «الفارّين» من بؤرة

fb/mashro3pdf

قتال لا تخصّهم أسبابه أو نتائجه.

اختلط بلل السباحة بعرق بارد نضحه خجلاً، وعرقٍ ساخن بفعل الزحام الذي استهلك طاقة مبرّدات الهواء. الكابوس الذي يطارده تحقّق بالمصادفة، إذ اكتشف أنّه يقف في وضع لم يزل يفاجئه بين حين وآخر بالكيفيّة ذاتها دائمًا، حيث يجد نفسه حافيًا في ملابس منزليّة بالساحة الرئيسيّة للجامعة.

سعيدًا بهذا التحقّق غير المخيف لكابوس لياليه، حافَظَ على توازنه وسط الحشد رافعًا بطاقته بصبر، مسلّيًا نفسه بمحاولة خرقاء للإنصات إلى الصوت الرهيف لتمرير كريستين بطاقات الأبواب بين شفتي آلة الشحن.

الفتاة ذات الجمال المحسوب على جهات الأرض الأربع، اعتادت أن تفعل ذلك برقّة عازفة وتمدّ يدها بالبطاقة مع ابتسامة وداع تُخَصِّب الطارئ بشحنات محسوبة بدقّة. لا ينبغي لطاقة الشحن في وجه فتاة الاستقبال أن تنقص عن حدّ معلوم فتصير إهمالاً لطارئ، ولا ينبغي لها أن تزيد إلى حدّ الاشتباك مع ابتسامة تتلكّأ على وجه صيّاد.

لا يُلزم البرج طاقمَ الخدمة بالعفّة الكاملة طبقًا لتعاليم القدّيس فرنسيس، ولا بأصول التسامي البوذيّة، بل

fb/mashro3pdf

بالامتناع عن اللذّة أخذًا أو عطاءً أثناء العمل ـ مجرّد صوم، أو استعراض للقدرة على حبس المتعة، كما في «التنترا» الشرقيّة، كي تظلّ امرأة الخدمة محتقنةً بالرغبة مثل أفعى ابتلعت فيلاً.

لم تسرِّب إحداهنّ إليه تعليمة البرج، لكنّه اكتشفها ـ مثل راهب بوذي ـ بالتأمّل، بعد أن لامست نظرته وجه كريستين للحظة من دون أن يحسّ بقوّة المغناطيس التي كانت هناك دائمًا في عينين لهما خضرة عيني امرأة فرعونيّة مولودة من مصري ولبنانيّة.

بعد نحو ساعة من الصمود وسط الموجة الرجراجة من الزحام، تقدّم باتّجاهها خطوات قليلة، لمحها مطفأة تحت عشرات الأزواج من العيون. أدرك أنّ الابتسامات السريعة التي وزّعتها كريستين طوال الساعة كانت كافية لهضم فيل الإثارة الذي بداخلها، ولم يتبقّ لها سوى الخواء والتعب.

ـ هذا شبح كريستين.

فكّر، وسرعان ما ألحّت على خياله صورة القشرة التي تخلعها الحيّة وتتركها قبل أن تنعطف وتختفي في جحر آمن.

ألحّت الصورة على خياله حتى توهّم أنّه رأى تلك القشرة المضلِّلة للأعداء، ثم عاد ليجزم أنّه لم ير كريستين

fb/mashro3pdf

ولا قشرتها، وإنّما فتاة أخرى تشبهها لكنّها أقلّ منها امتلاء.

ـ ولو؟!

همس لامباليًا، فحتى لو كانت الواقفة تحت تقاطع النظرات هي الفتاة ذاتها التي تبتسم له أكثر من مرّة في اليوم، ليس من المؤكّد أنّ اسمها كريستين، بعد أن ألهمته مالو مبدأ الشكّ في اللافتات المعدنيّة الباردة فوق النهود.

كانت وجوه الطارئين أقرب إلى البهجة، وكانوا يواصلون تدافعهم باتّجاه فتاة الشحن من دون أن تنقطع حواراتهم الحيويّة، لكنّه ظلّ مادًّا يده بالبطاقة المشتاقة من غير أن يتمكّن من التقاط جملة يتعرّف منها على هويّتهم. سأل الرجلَ الملاصق له، فعرف أنّ الرجال السود والسمر طرأوا لينضمّوا إلى قدامى المفاوضين في مؤتمر ضخم يبدأ في الصباح.

ليس من عاداته اقتحام الآخرين بالأسئلة، وليس هناك تفسير واحد للفضول الذي تلبّسه فجأة وشحنه بالشجاعة للسؤال. سيبدو اللؤم مبعثَ سؤاله لو استقبلته أذن مهووسة بحيازة القوّة، وكأنّه يريد أن يستحوذ على اهتمام الطارئ الجديد: انتبه، أنا أقدم منك هنا، بدليل أنّني أسألك عن هويّتك، تذكّر هذه الحقيقة عندما تزاحمني أمام باب مصعد

fb/mashro3pdf

أو أمام طاولة الطعام أو في حوض الجاكوزي بالطابق السادس والعشرين. الشخص الخوّاف يحسّ بأمثاله، ومثل ذلك الشخص يمكنه أن يلمح القرن الضعيف لنبتة الخشية لدى طارئ، ويريد أن يعرف مَن هؤلاء الذين سيصطدم بهم في كلّ مكان بالبرج على مدى الأيّام القادمة. ويمكن لشخص ثالث أن يرى السؤال عاديًّا، من ذلك النوع الذي يطرحه الناس عادة ولا يبتغون من ورائه سوى كسر الملل.

بعد أن صار أقرب ما يكون إلى فتاة الشحن رأى كاميرا ضخمة على كتف أحدهم تمسح المكان. تقهقر ليختفي خلف الحائط البشري، حتى لا توثّق الكاميرا عُرْيَه المبلَّل. كان المذيع المتعرّق في بدلته وربطة العنق، يحفر لنفسه نفقًا بين الطارئين الجدد، يجرّ وراءه كابل ميكروفون من النوع القديم بحجم رأس طفل، وتحت الرأس المخروطي للميكروفون مستطيل من الإسفنج يحمل شعار تليفزيون الدولة التي طرأوا منها.

كان المذيع يحرص على أن يبدو الشعار في عين الكاميرا أكثر ممّا يبدو هو أو الضيف. ولأنّ الناس لا تنظر للأمور من زاوية واحدة، يمكن لأحدهم أن يرى في الرأس المخروطي للميكروفون رمزًا لوبيديًّا، ويمكن لآخر أن يرى في الكتف المكعّبة قوّةَ المطرقة التي أخرجتهم من

fb/mashro3pdf

بلادهم، ويمكن لطارئ لا يلتفت إلى تفاصيل الجماد، أن يتجاهل الميكروفون وينتبه فقط إلى المذيع الأسمر، الذي تمكن رؤيته من أكثر من زاوية، فهو بالنسبة لمن يكابد بقايا مراهقة سياسيّة أو مهنيّة، نموذجُ الإعلامي النبيل الذي وصل تفانيه إلى حدّ القدوم إلى هذه الجزيرة من أجل إحراز سَبْق يُسعد به مشاهديه. ويمكن لمراقب يطلّ على الحياة من شُبّاك الضحك، أن يرى في المشهد كوميديا من النوع الأسود، إذ إنّ مذيع البلاد كان مع هؤلاء الطارئين في البلاد منذ تعلَّمَ حمل الميكروفون، وكان بوسعه أن يتحاور معهم هناك بدلاً من هذا الكفاح بلا طائل في اللحظة التي تحوّلوا فيها إلى طارئين كلّ ما يشغلهم هو بطاقة ممغنطة تفضي إلى غرفة صمت. كان المذيع يقتنص الرؤوس المهمّة، يخصّ نفسه بالمطرقة الإيروتيكيّة ويكرمهم بالمايك الصغير الحسّاس، ينقِّله من عروة جلباب إلى عروة جاكتة. كان المفاوضون الجدد يبتسمون للكاميرا ويعدون بالوصول إلى حلّ في هذا المؤتمر.

ـ لماذا لم يصلوا إلى الحلّ هناك؟

تساءل، بينما كان يتشبّث بأوّل شبر من الأرض لا ترمقه فيه عين الكاميرا، لكنّ موجة جديدة من الطارئين أفرغها الباص على البوّابة التحمت بسابقاتها ودفعته بعيدًا

fb/mashro3pdf

وأيأسته من الوصول إلى الشحنة المغناطيسيّة، فقرّر أن يستغلّ الوقت في تناول العشاء.

ـ طابق واحد لا يستحقّ التزاحم أمام المصاعد.

فكّر وفتح الباب السرّي المفضي إلى درج لا يمكن أن يكتشفه طارئ جديد، وقبل أن يخطو داخل المطعم واجهته موجة الطنين. تداعى على كنبة صغيرة في مدخل المطعم انتظارًا لطاولة تخلو. لم ير الكنبة من قبل ولكنّها خطرت لعينيه حالاً كالإلهام. أغلق عينيه ليتمكّن من اقتناص كلمة شاردة. كان اختلاط الأصوات شديدًا، وما يتطاير من الكلام مثل دقيق ناعم يضيع تحت صليل الملاعق في الأطباق. أخذته غفوات يفيق منها إلى تسليته المفضّلة سعيدًا كلّما تمكّن من تجميع أرباع الجمل في جملة سليمة. في وقت الانتظار الطويل اكتشف لعبةَ قياس حجم زحام المطعم من دون أن يفتح عينيه، اعتمادًا على تناقص الصليل وتزايد الكلام.

بدا شغف المفاوضين القدامى ومواليد البرج بسماع الطارئين الجدد.. وكانت الجمل التي استطاع أن يجمع شتات كلماتها إمّا تقدِّم المقارنات في سلوك البشر بين بلد النشأة والبلد المضيف، أو تتحدّث عن الأشياء العجيبة التي رأوها للمرّة الأولى في المطار.

fb/mashro3pdf

نظر إلى ساعته، كان الوقت قد تجاوز الحدّ المعتاد لإغلاق المطعم. صرف النظر عن العشاء ونزل إلى الاستقبال حيث تقف الفتاة المنهكة، تناولت البطاقة من يده ومرّرتها بين مشفري الشحن وأعادتها إليه من غير أن تبتسم.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

مات من قبلُ ثلاثَ مرّات ـ مرّة بغاز أوّل أكسيد الكربون عندما أوقد نارًا وأغفى، ومرّة في طائرة جرى للّحاق بها عقب ليلة حبّ صاخبة، والثالثة في طائرة أخرى استقلّها بعد يوم عمل عنيف. في المرّات الثلاث، وسط بلل القيء والبول، عرف لذّة البعث التي لم يعرفها في ولادته الأولى، عندما انزلق وسط المخاط والدم.

واليوم نال بهجة الميلاد للمرّة الرابعة: في عينين مبلّلتين أقبلتا عليه في الموعد المحدّد بالضبط. بعد مصافحة متوتّرة جلست ملمومةً مثل عصفور بينما تركت عينيها المرتبكتين تبوسان وجهه.

كان بوسع المحاسِبة على صندوق كافتيريا البرج أن

fb/mashro3pdf

ترى في ملامسات نظرتها لوجهه اشتهاء.

أيُّ طارئ آخر بحاجة إلى الكثير من التسامي حتى لا يحسد طارئًا كهلاً شَغَفَ العصفورةَ حبًّا، لكنّ ما أحسّه الطارئ كان شيئًا أعمق من البهجة التي يستشعرها الرجل عندما يكون محبوبًا، أحسّ في حضن عينيها أنّه حيّ.

لم يفلح في معرفة من أين جاءت وكيف عرفت بوجوده في البرج. قالت إنّها حلمت به على مدار سبعة أيّام وواظبت على الاتّصال بغرفته سبعة أخرى حتى عثرت عليه، لكنّها تعرفه تمامًا من خلال حكايات تتبّعتها في أحلامها ليلة بعد ليلة.

ـ أحببتك وأخشاك.

قالت، واحمرّ وجهها، بينما اتّسع فمها من الأذن للأذن بابتسامة حارّة حملته على الهذيان. اكتشف أنّه يجرّب صوته للمرّة الأولى منذ زمن طويل. أخذ يثرثر على غير عادته مستمتعًا بعُرْيه أمامها، حدّثها عن نفسه، عن النساء الغافيات في أحلامه. كان واضحًا أنّها تعرف عنه أكثر ممّا يعرف عن نفسه، لكنّها تستعذب الاستماع، وكلّما استشعر الحرج من تحديقها الصامت حفَّزته بكلمة، ترتدّ بعدها سريعًا إلى صمتها بينما تزداد عيناها اتّساعًا.

تخفّفت من الشال الذي يغطّي كتفيها فبدت ذراعاها

fb/mashro3pdf

العاريتان نحيلتين كجناحي عصفور خرج للتوّ من قشرة البيضة المتداعية. ارتعشت تحت نظرته التي احتوتها، فأطاحت بكوب العصير. هرولت النادلة إليها بمنشفة وساعدتها على إصلاح فستانها الذي ظلّ مبلّلاً.

ـ لديّ مكواة في الغرفة هل نصعد لتجفيفه؟

ـ تجفيف الفستان ليس مبرِّرًا كافيًا لصعود زائرة إلى غرفة رجل.

ـ عندي مشروبات غير ما يقدّمونه هنا.

اتّسعت ابتسامتها ولم تقل شيئًا. هبّ واقفًا ومضت وراءه إلى المصعد بتصميم لم ينمّ عن تردّدها الذي بدا لاحقًا، إذ أخذت تنتفض داخل علبة الحديد الصاعدة مثل عصفور في مصيدة، لكن عينيها لم تتوقّفا عن اللعق. لم تفلح تربيتاته على كتفها في طمأنتها.

أغلق باب الغرفة وراءهما تاركًا ثقل جسمه المغتبط على الباب لحظة، ممنّيًا نفسَه بردٍّ على شاغلي الغرفة المجاورة، التي ينطلق منها صراخ حبّ في توقيت منتظم يبدّد قيلولاته. وضع البطاقة الممغنطة في مكانها فاشتعلت أنوار الغرفة. احتوى الفتاة، التي تصاعد لهاثها. أخذ يتابع تنفّسها صعودًا وهبوطًا، مرعوبًا من لحظةٍ يهمد فيها صدرها تمامًا. أزاح الستائر لعلّها تطمئنّ بضوء الواجهة

fb/mashro3pdf

الزجاجيّة الرحبة. مضى إلى الثلّاجة الصغيرة، صبّ كأسين، ناولها إحداهما. جلس لِصْقَها على الكنبة الصغيرة يهدهدها ويتحسّس بلل فستانها على وركيها، فيتضاعف انتفاضها من دون أن تتخلّى عيناها عن التعلّق بوجهه.

ـ الشراب سيجعلك أفضل.

لم تتأخّر في العَبِّ من كأسها مثل أسير منحوه الماء بعد أن أشرف على الهلاك. وفي لحظات أفرغت الكأس، النصفَ في جوفها والآخرَ أضاف مساحاتِ بلل جديدة على فستانها، بينما صارت بكلّ بللها بين ضلوعه. لا يعرف مصدر إشعاعها، كلّ ما يعرفه أنّه يريد الاحتفاظ بها بأيّة صفة، ولا يصدّق أنّه يراها للمرّة الأولى.

طمأنَتْها هدهداتُه بعد أن تمكّنت من تتبّع خيط الأبوّة وسط بُكلة خيوط المشاعر المتداخلة في أصابعه، فأخذ لهاثها في التنازل حتى سكنت تمامًا بحضنه. بدأ في حلّ رباط فستانها من الخلف، تجمّدت نظرتها على وجهه، فلم يعرف إن كانت تعاتب أم تشجّع.

ـ ألن نجفّفه؟

جاوبت من خلال اتّساع بياض عينيها. رفعت يديها لتساعده على تحرير الفستان. نحّاه جانبًا وأخذ يتأمّلها بينما يتصاعد رفيف صدرها. احتضنها، فتخلّصت منه برفق

fb/mashro3pdf

وابتعدت شبرًا تركه بينهما ولم يشأ أن يضايقها بإلغائه.

ـ سأريكَ شيئًا.

قالت وامتدّت يدها المرتبكة إلى حقيبتها، أخرجت صورًا لكلّ نساء حياته.

ـ هل تعرف كم أتعبني هذا البحث؟

قالت، وانطلقت تشرح له كيف حصلت على كلّ واحدة منها. جلس صامتًا، تأكلها عيناه ويتصاعد تنفّسه، بينما تتوغّل هي في الاطمئنان، تتحدّث عنه وكأّنه غير موجود.

ـ عشقه مختلف، يقدّر النقص لا الكمال.

قالت كالحالمة، وألقت بالصورة على الشبر الخالي بينهما.

ـ هذه الوركاء، أَحَبَّ روحها، وعاش في بريق عينيها متغاضيًا عن ثنيات أعكانها المترهّلة.

ألقت بالصورة الثانية فوق الأولى.

ـ وتلك كان يغار على صدرها إلى حدّ تعكير وجودهما بين الآخرين.

أخذ يستمع متشبّثًا بابتسامة وجهها التي خالطتها الغيرة

fb/mashro3pdf

عندما ألقت بصورةِ ذاتِ الدمع المدرار.

ـ كان ضعيفًا، لم يقدّر حبّها.

أراد أن يقول لها نعم، لكنّها تابعت:

ـ وذات العين اللعوب بدّدت سلامه.

ثم ألقت أمامه بالصورة الأخيرة وصرخت بحنق:

ـ ولماذا هذه الشاحبة؟

لم ينبس. سحبها إلى السرير. عاتبته عيناها. توسّلت إليها عيناه كي تضطجع في حضنه. أراد أن يتذكّر كيف يكون الدفء. طوّقها من الخلف محتضنًا صدرها بيديه، ضرب بركبته بطن ركبتها خفيفًا، فأوهنها وأقعدها على حرف السرير. رفعت طرَف اللحاف واستلقت تحته بينما تصاعد لهاثها مجدّدًا. تبعها تحت الغطاء وأخذ يتخلّص من ملابسه قطعة قطعة، ثم تسلّلت يده تجرّدها من حمّالة صدر منفوشة كقشرة النارنج، وأخذ يتحسّس ظهرها، يطوّقها بيد واحدة، يضغط النهدين، الأصغر ممّا بديا قبل أن يُطوّح بالحمّالة في الهواء. ترك أصابعه تعدّ الضلوع، تمشّط منخفض عمودها الفقري، تلمّ خصرها، تتحرّك لترتقي الردفين الصغيرين وتهبط على الوركين. صار اضطرابها هذيانًا، وصوتها يحنّ ويصمت بينما جسدها

fb/mashro3pdf

يتملّص، تصرخ بالرفض عندما يسكن جسدها مستسلمًا. وفجأة انزلقت منه وجلست متجهّمة.

ـ سأمشي.

لم تنتظر رأيه، ارتدت ملابسها لاهثة، وحملت حقيبتها. وانطلقت إلى الباب.

ـ متى أراك؟

ـ لن تراني.

وقف ببابه الموارب يتابع ضغطات أصابعها الفاقدة الصبر على لوحة مفاتيح المصعد، بدت أقلّ طفولة ممّا كانت حتى هذه اللحظة. تلفّتت قبل أن تمنحه نصف تلويحة وتختفي داخل العلبة المعدنيّة. أغلق بابه بكتفه محاذرًا من لمس أيّ شيء يبدّد بصمات جسمها من فوق أصابعه.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

سيطر عليه الاختفاء المفاجئ للصامت الحزين، وجعله يشعر بانقباض الفأل السيّئ الذي يستشعره في رفّة جناح غراب فوق نهر، أو صرخة بومة استوطنت مئذنة، أو عواء كلب رأى ملاك الموت في جوف الليل.

الحزين رجل نحيف إلى حدّ التلاشي داخل جلباب متعرّق مدعوك، يمكن لعين عابرة أن ترى عبوسَه تعاليًا، وربّما ضجرًا، لكنّ سرّ صمته وعبوسه لا يمكن أن تدركه عين. ربّما عاش بالبرج حتى نسي الكلام، وربّما تكلّس حزنُه كتربة صخريّة لا تستطيع نبتةُ ابتسامة هشّةٌ أن تشقّها.

ربّما يستطيع طارئ تعرَّضَ للخديعة أن يرى في وجه الطارئ الصامت حسرةَ عاقلٍ وجد نفسه نزيل مصحة عقليّة

fb/mashro3pdf

بمؤامرة. وبالنسبة لمن لم يواجه خسّة الغدر ويعوّل على فتور الاعتياد، لا بدّ أن يبدو هدوء الرجل وكأنّه سكينة راهب أمضى أعوامًا من العزلة في قلايته، وتدرّب بإخلاص على إماتة مشاعره الدنيويّة.

كان متجاهلاً لكلّ ما حوله، لا يفترّ ثغره عن إشارة شكر عندما يرفع النُّدَّل من أمامه فناجين القهوة الفارغة أو عندما يضعون أخرى ممتلئة، لا يهتزّ له رمش لعبور جسد ما، سواء كانت المؤخّرة المنسحبة من أمامه مستقيمة عجفاء أو في كامل بهاء تقوُّسها الأنثوي. يتجاهل حتى الكرسي، يجلس عليه في وضع القرفصاء، وكأنّه يستعيد صلته مع أمّه الأرض رافضًا الاعتراف بوساطة الخشب.

له طاولة محدّدة، يجلس إليها بزاوية تأخذ بنظرته إلى البحر عبر زجاج الواجهة. يصل مبكرًا ولا يغادر المطعم إلى غرفته إلّا عندما يبدأ النُّدَّل في تبديل المفارش استعدادًا للوجبة التالية. لا يأكل قطّ ولا يكفّ عن التدخين وشرب القهوة التركيّة.

يشترك الرجل الصامت مع المفاوضين في سمرة اللون وبياض الجلباب، لكنّه لا يتحدّث مع أيّ منهم، ولا يَدَعُ جملةً طائشة من مائدة أو أخرى تستدرجه إلى حوار.

لم يعرف لِمَ ينشغل بالرجل الصامت إلى هذا الحدّ،

fb/mashro3pdf

على الرّغم من أنّه لم يُبْدِ أيَّ استعداد للتواصل، حتى إيماءات التحيّة التي كان يوجّهها إليه بدافع اللياقة عندما تتلاقى نظراتهما، لم يكن يكلّف نفسه عناء الردّ عليها.

بقليل من التحامل تستطيع العين أن تجرّد النحيف من حياده وأن تضعه في مكان أقرب إلى العدوانيّة، وكان من المنطقي أن يجلب غيابه الارتياح، لكنّه أحسّ بوحشة حقيقيّة لغياب الرجل الغامض.

ـ هرمت.

فكّر للمرّة الأولى في مأزق العمر الذي طالما تحاشاه، وعندما كان طارئ آخر يفسح له لعبور باب، كان يتجاهل المجاملة، التي يراها إشارة سمجة إلى تقدّمه في العمر، ولا يكفّ عن عقد مقارنة في الحيويّة بينه وبين المجامِل منتصرًا لنفسه. لكن قلقه لغياب ذلك الوجه المتحدّي جعله يوقن بأنّه لم يعد على استعداد لتحمّل أيّ تغيير، وهذه علامة مؤكّدة على التقدّم في السنّ.

هشاشة الخوف من المجهول التي تدفع ملايين الرجال والنساء إلى تحمّل شريك سيّئ حتى آخر العمر، هي نفسها التي دفعته إلى التخلّي عن كلّ تسلّياته المعتادة وتكثيف كلّ فضوله من أجل البحث عن الرجل الصامت. ولم تكن مهمّةً سهلة، في ظلّ الزحام الشديد منذ وصول المفاوضين

fb/mashro3pdf

الجدد، فهم من الكثرة بحيث صارت الأجساد على طاولة عرض الطعام كتلاً متلاصقة، والتفرّس في الوجوه يحتاج إلى وقاحة لا يمتلكها، وإلى تسامح لا يمكن لإنسان أن يمنحه لغريب يتأمّله باستغراق مريب في لحظة اختيار طعامه. الصعوبة ذاتها واجهها كلّما حاول التفرّس في وجه من الوجوه على الموائد المشغولة بالكامل طوال ساعات النهار ومعظم الليل، في المصاعد المختنقة، وفي الممرّات.

ـ أنا وهو فقط نطلب القهوة التركيّة!

ابتسم لهذا الإلهام، وأدرك كم طالت إقامته بالبرج. الطارئ الجديد يستسلم للضيافة العامّة، يبتهج بدورق القهوة الأميركيّة البليدة، يموّه باللبن شياطَ طعمها، ويلزمه الكثير من الوقت قبل أن يبدأ في اكتشاف إمكانيّة تسامح البرج مع أنواع التمرّد الصغيرة، مثل رفض قهوة اللاأحد، والإصرار على فنجان قهوة أقرب إلى الطعم الغافي في ذاكرة لسانه.

ـ وجدتها!

صاح بعد أن قرأ الحلّ مسطورًا على سقف غرفته. بدأ في الصباح تتبُّع حركة النُّدَّل مترقّبًا ظهور صينيّة تحمل كنكة قهوة مع فنجانها الصغير. ونجحت الخطّة! لم ينته

fb/mashro3pdf

ذلك اليوم حتى رأى صينيّة تحطّ على مائدة أمام واحد من المفاوضين له ملامح الرجل الصامت. تهلّل الطارئ للاكتشاف، لكنّ البهجة التي شقّت قلبه لم تدم سوى ثانية واحدة، لأنّ ما أثبتته الملامح نفاه مرحُ صاحبها وصخب صوته والبدلة الأنيقة التي يرتديها والشريط الأحمر الذي تتدلّى منه بطاقة مؤتمر.

ـ المفاوضون السمر يتشابهون.

همس لنفسه بكلّ ما ولد في رأسه من إحباط، وأنصت إلى الرجل الصاخب في محاولة أخيرة، لكنّه تذكّر أنّه لم يسمع صوته من قبل. قام إلى طاولة العرض ليجلب شيئًا لا يحتاجه إلّا كسبب للمرور بين المفاوضين، مشّط الجالسين بعينيه في الذهاب والإياب، ولم يجد ما يؤكّد هويّة المفاوض أو ينفيها.

عاد إلى طاولته من دون أن يتخلّى عن تصميمه. أطالوا قعودهم فأطال. تَسَحَّبَ بنظرته يتفحّصه، ومن دون أن يتعمّد المفاوضُ مساعدته، نفض خفّه ورفع قدميه جالسًا القرفصاء على الكرسي، بينما نفض سيجارته بمرح في الفنجان الفارغ.

ـ إنّه هو!

أبهجه الاكتشاف. وعلى مدى أيّام المؤتمر صارت

fb/mashro3pdf

لديه تسلية جديدة، يبدأ اللعبة بتجاهل المفاوض النحيف إلى حدّ تضييعه بين المفاوضين، ثم يَشْرَع في البحث عنه، يُرهِف سمعَه لصوته المجلجل، ويخزّنه في ذاكرته كعلامة فارقة جديدة. حفظ الكثير ممّا قاله مثلما يحتفظ الناس بالكثير من الأشياء التي لن يحتاجوا إليها أبدًا.

مضت أيّام المؤتمر سراعًا وانتهت بليلة صاخبة من المصافحات وتبادل العناوين على موائد العشاء، وفي الصباح كان الزحام أخفّ، من دون أن يعود المطعم إلى هدوئه القديم. تبقّى بعض المفاوضين الجدد الذين ارتبطوا بعلاقات مصاهرة مع المفاوضين القدامى، وكان بوسعه أن يتنشّق رائحة الطزاجة في هشيم الكلمات الذي يصل إلى أذنيه، بينما عاد الرجل النحيف إلى القرفصة أمام طاولته المنعزلة وحيدًا صامتًا في جلبابه المتعرّق.

fb/mashro3pdf

ليس في البرج أنهار خمر ولا بارات ولا مراقص. والوفرة من الطعام لا تصنع وحدها جنّة.

المستنيمون لخداع البصر والذين طرأوا بعد تصفية حسابهم مع الدنيا، بوسعهم رؤية الكمال الفردوسي في البرج، أمّا من يحملون جحيمهم في داخلهم فلن تنفعهم مزاود البوفيه المفتوح، لكنْ بوسع الواحد منهم أن يستعيض عن نهر الخمر بقنّينة في خزانته لن يكتشف وجودها أحد، وأن يراقص طارئة تتسلّل إلى غرفته، أمّا قدامى الطارئين فيمكنهم استعادة أمسياتهم البعيدة السعيدة، التي يتزايد وضوحها في ذاكراتهم كلّما نأت في الزمن.

كثير من الطارئين يجدون أنفسهم وسط كهف الذكريات

fb/mashro3pdf

الذي انزلقوا إليه خطوة خطوة من دون أن يتمكّنوا من معرفة اللحظة التي بدأ فيها زحفهم العكسي، لكنّه عرف اللحظة بوضوح تامّ، عندما أمرته طبيبة البرج بحسم:

ـ عليك أن تبتعد عن الانفعال حتى تبرأ أو تغادر.

بدأ الاستعانة بجهاز التحكّم عن بُعد في التليفزيون لتبديد ساعات الأرق الطويلة في الليل وصراخ الغرفة المجاورة في الظهيرة. بتصويبة واحدة يجد نفسه في أرض معركة، أو ساحة احتجاج، أو مرقص... وسرعان ما يكتشف أنّ مشاهدة الحياة تنعش وحشته بدلاً من أن تقتلها، يضغط بيأس زرّ الإغلاق ويستعيد الصمت، يتقلّب محبَطًا من رحلة أضجرته ولم يشمّ فيها روائح جروح المحاربين، أو عرق الثوّار، أو عطور الناعسات على وسادات الأفلام، أو الخلطة الشبقيّة لروائح الأجساد المدبوغة بالدخان والكحول في المراقص.

ـ إذا عجزت عن قتل الوحشة بتصويبة، فلتحاولْ إغراقها.

حدّث نفسه من دون صوت، وكأنّه يكتشف للمرّة الأولى وجود حمّام بالغرفة، حيث الماء بدرجات حرارته المشتهاة، وأنواع الصابون المعطرة المتراصّة على إطار حوض الاستحمام، والمناشف النظيفة. بهجة البلل كانت

fb/mashro3pdf

منذ الصغر ملجأه الأخير. عندما يحزن أو يمرض يمضي إلى الماء، يغطس بعمق قدرته على حبس أنفاسه، ثم يطفو خفيفًا تاركًا أحزانه في القعر.

غادر السرير. نزع بيجامته وألقى بها على الأرضيّة الموكيت. تحرّك أمام مرآة الغرفة التي أسلمته إلى مرآة الحمّام، مغتبطًا بما يعتبره أهمّ ثمار العزلة: حرّيّة التعرّي.

جلس على التويليت وتخفّف من خزين مثانته بينما كان البانيو يوشك على الامتلاء. انزلق في جرن الماء الساخن وأفرغ قنّينتي رغوة صنعتا كثيبًا أبيض فوقه. أسند رأسه على حافّة حوض الاستحمام خارج الماء وجعل قبضة الصنبور في متناول يده، وكلّما كانت البرودة تغلب على الدفء يفتح المزيد من الماء الحارّ. وعندما أوشك الحوض على الفيضان اكتشف أنّ ما يصلح لصدّ نوبة حزن أو أنفلونزا في بدايتها لا يصلح لطرد الوحشة المتمكّنة من روح تمضي نحو الشيخوخة.

تأمّل أعضاءه الهامدة في المرآة من خلال فتحة البُرنس الأبيض، متذكّرًا ومستدعيًا صورة همبرت همبرت قبل أن يطلق الرصاص على الرجل الذي نازعه قلب لوليتا. تخلّى عن البرنس واندسّ متداعيًا تحت الملحفة البيضاء.

ـ لا أمل في لوليتا تُسعد أو تُشقي.

fb/mashro3pdf

قالها بصوت مسموع باتر. أغلق عينيه مستجلبًا النوم، لكن خدر الحمّام الساخن كان يتبدّد ويحلّ محلّه صحو عنيد، محروسًا بصفّين من الوساوس والمخاوف والاشتهاءات. اعتدل في جلسته، كملاكم يريد الالتفاف على اللكمة التي يتوقّعها من الأرق.

ـ لا يفل الوحشة إلّا الحديد.

نفض الغطاء. أزاح ستارة الواجهة. لم يزل ضوء النهار عنيدًا. ارتدى الشورت والـ «تي شيرت». انتعل خفّ القُنَّب الأبيض ولم يحمل في جيبه سوى بطاقة الباب، صاعدًا الطوابق الأربعة بين غرفته والنادي الرياضي، قاصدًا غرفة الـ «جيم» المستطيلة، التي تتراصّ ماكينات الجري على واجهتها الزجاجيّة التي تطلّ على البحر. إطلالة من شأنها أن تجلب الرضى للطارئ، الذي لا يفهم كيف يكون البرج برجًا أو تكون المدينة مدينة من دون إطلالة على ماء، عذب أو مالح، لكن لجّة الماء الساكن تبدو خياليّة إلى درجة تنزع عن البرج والمدينة صفاتهما.

لم يكن في الصالة كلّها سوى طارئ واحد مستلق على الأرضيّة الباركيه، يحمل ثقلاً كبيرًا، بينما يتولّى المدرّب الجالس القرفصاء بجواره مساعدته على تثبيت وسطه على الأرض.

fb/mashro3pdf

رمقه رجل الحديد بطرف عين، وأشار للمدرّب إلى ركن الأثقال الإضافيّة، فجلب له ثقلين جديدين وبدأ بإضافتهما، وعاود المستلقي رفع الحديد حتى كاد الدم يتفصّد من وجهه المتقلّص، بينما لم يُنزل نظرته عنه.

تجاهل تحديقة العينين الجاحظتين تحت الثقل. خطا نحو آلة المشي ورفع قدميه متثاقلاً إلى السطح الكاوتشوكي ثم ضغط زرّ التشغيل وضبط السرعة على الحدّ الأدنى. بدا الزجاج النظيف شفّافًا كأنّه غير موجود، ومع تصاعد سرعته أحسّ إثارة الطيران التي تحققها مدن الملاهي، وتذكّر بقلب خافق متعةَ التحليق، التي أحسّها مرارًا في حلم يبدأ برعب السقوط من نافذة، وعندما يُرفرف بذراعيه يكتشف سعيدًا أنّه ارتفع أعلى من نافذة السقوط، وأنّه سيحطّ بأمان بفضل قدرته على التحليق.

بعد لحظات، تخلّص المستلقي من رافعة الحديد، وفي لحظة صار واقفًا بالقرب منه وفي بؤبؤيه المتحفّزين ازدراء محبوس لم تستطع نظرته المتفحّصة أن تنقله بكامل عدوانيّته. خذلته القامة القصيرة.

لم يكن قصيرًا تمامًا، وبسبب نحافته المفرطة لا يمكن أن يُقال له رِبعة. رأسه مدبّب صغير، لونه وردي، أنفه ليس في ضخامة أنوف الجنوب الأوروبي ولا في نحافة

fb/mashro3pdf

أنوف الشمال، ولا تمكن نسبته إلى مكان محدّد، تمامًا مثل الجمبري، الذي لا يمكن تصنيفه حيوانًا أو سمكة أو حشرة.

وجد أنّ اعتزازه بنفسه يوجب الردّ على «الجمبري». أوقف ماكينة الركض وصوّب إليه نظرة من فوق، تفاداها الجمبري بإسبال جفنيه قافزًا إلى المشاية المجاورة. وبدأت حركته في التسارع.

أدار زرّ الركض، لكنّه وُفْقَ عدّاد الماكينة، لم يصمد سوى خمس دقائق وعشرين ثانية من الهرولة الخفيفة أوصلته إلى حدّ الاختناق. أوقف الآلة وترجّل ليجلس على آلة عضلات الصدر، المثبّتة مع غيرها من آلات بناء الجسم في صفّين إلى الداخل من آلات الجري، وتتوزّع بينها الأعمدة الضخمة المكسوّة بمرايا توسّع الصالة وتُكثِّر الطارئين النادرين الذين يستدرجون وحشتهم لمنازلة بعيدة عن الغرف.

ضبط الثقل على حدّه الأدنى. شرع يجذب الذراعين العنيدتين مختلسًا النظر إلى الجمبري، الذي بدا وكأنّه سيواصل الجري إلى الأبد. كان لحركة إليتيه البندوليّة في المرآة مظهر آلي. لا تباطؤ بعد السرعة القصوى التي وصل إليها. أخذ الطارئ يتابع حركته مرّة بالنظر المباشر ومرّة

fb/mashro3pdf

بالتلصّص عبر المرايا، وكلّما طال الوقت زاد فضوله، انتظارًا للّحظة التي سيتعب فيها الجمبري ذو العشرة أرجل ويكفّ عن الهرولة.

غرقت الشمس في الماء المالح بعيدًا عن البرج، فتحوّل زجاج الواجهة إلى مرآة عكست الجمبري، الذي عاود البحلقة إليه. أخفق في تحديد نوع هذه النظرة، فتشاغل بالنظر إلى زجاجة المياه والمنشفة الملفوفة بعناية فوق رأسه. أوقف آلته وتناول الزجاجة، تجرّع جرعة لم يكن بحاجة إليها، ونقل عصا الثقل إلى الدرجة الثانية، واستأنف دفع الذراعين، فأحسّ بتقلّص بطنه ووجهه وانحلال ذراعيه.

دار الجمبري حوله دورة ناظرًا من فوق، وتوجّه إلى المدرّب، الذي سار أمامه إلى تحت السلّم في مدخل الصالة. فرش المدرّب رقعة كاوتشوك ودحرج إليه الكرة المطّاطيّة الضخمة. نام فوق الكرة متقوّسًا كحشرة جمبري حقيقيّة، رأسه متدلٍّ من جهة ومن الجهة الأخرى كانت قدماه لا تكادان تلامسان الأرض. أخذ يدحرج الكرة بظهره محافظًا على توازنه فوقها، وعيناه في المرآة تستجديان الإعجاب.

عرف كيف يتجاهله وينتقل إلى آلة في الجهة الأخرى،

fb/mashro3pdf

لكن مرآة العمود الفاصل بينهما أرسلت بصورته إلى زجاج الواجهة، بينما تلقّفت مرآة الجهة الأخرى من العمود صورة الجمبري وألصقتها على مرآة الواجهة تحدّق به، فغادر مكانه إلى آلة البطن.

قفز الجمبري خفيفًا من فوق الكرة متوجّهًا إلى آلة الصدر. دار حولها مثل ملاكم يناور قبل التسديد. نظر بازدراء إلى علامة الثقل المتدنّية فنزع مسمار التثبيت ووضعه في فتحة الثقل الأقصى. قفز إلى الكرسي وجذب الذراعين بقوّة، فأنّت الآلة وبدا أنّ سيور الحديد الواصلة بين الثقل والذراعين ستتمزّق. واصل الجمبري حركته حتى صار لونه الوردي نبيذيًّا كلحم العجل. تخلّص من ذراعي الآلة كمن ينفض يده من فضلة تافهة. دار حول الآلة لاهثًا كأنّه يوبّخها:

ـ استوعبت الدرس؟

غادر آلة البطن فأسرع الجمبري نحوها. توقّف أمامها يُحْكِم العرّاقتين السوداوين على مرفقيه، وفعل الشيء نفسه مع دعامتي الساقين فوق حذائه الرياضي. اعتدل وأخذ يعاين الآلة، بينما يلاحقه المدرّب بالمنشفة. استوقفه وجفّف له وجهه ورقبته وصدره، ووضع المنشفة جانبًا على آلة الصدر وفتح له زجاجة مياه. رشف الجمبري رشفة

fb/mashro3pdf

وأعاد الزجاجة إلى المدرّب سريعًا وهرول إلى كرسي الآلة كمن يقفز إلى قطار بدأ بالتحرّك. ضَبَطَ الثقلَ على الحدّ الأقصى، وشرع يعبث بالذراعين يهدهد الثقل الكبير كما يهدهد المرء طفلاً.

أوقف لاهثًا آلة الساقين، ومن زاوية في مرآة العمود أخذ يتأمّل عضلات الجمبري. لم تكن هناك تلك الانتفاخات القبيحة التي تبدو على أذرع المتفانين في صالات التدريب، فخذاه الأمردان نحيفان ناعمان كفخذي فتاة.

ـ كيف تقاوم عضلاته كلّ هذا العنف؟

التقت عيناه بعيني الجمبري لحظة، فانسحب قبل أن تبدأ المعركة باحثًا عن ركن قصي. انتقل إلى آلة أخرى، لكنّ الجمبري كان يتبعه كقصّاصِ أثر، ليعاين الثقل الذي ترك الآلة عليه، ثم يتفحّصه باستهزاء، كملاكم يحاول إيقاع الهزيمة بخصمه قبل أن تبدأ المباراة.

اكتشف متعة تضليل قصّاصَ الأثر، تحامل على عضلاته المفكّكة وأخذ في التنقّل من آلة إلى آلة، وكلّما انتهى من واحدة نقل مسمار الثقل إلى أعلى ثقب.

استغرقته لعبةُ متابعة أثر حيلته على وجه الجمبري، حتى إنّه لم ينتبه إلى دخول طارئين آخرين إلّا بعد أن

fb/mashro3pdf

بلغت الفتاة على الدرّاجة في صفّ الواجهة سرعتها القصوى. لم يجرّب رفيقها أيّة لعبة، لكنّه اتّخذ من آلات الصفّ الثاني مقاعد يصوّب من فوقها الكاميرا نحوها. يصوّرها من كلّ الزوايا، متابعًا ركضها المتسارع داخل بنطلونها الكتّاني الفضفاض. لإليتيها جمال نهدين مراهقين. تتقاذف المرايا جانبًا من وجهها النحيل المتطاول وأنفها الشهواني الحادّ.

يغافل رفيقَها ويتأمّلها باشتهاء حزين. شتمته عيناها عبر مرايا الصالة المستطرقة عندما اصطدمت بنظرته المتفحِّصة، فارتدّ بصره حسيرًا إلى الجمبري الواقف بين يدي المدرّب يُنَقِّل جهاز قياس النبض فوق ثديه الأيسر وتحته. يمسك مرفقه بيديه مغلقًا عينيه متمتمًا بعدّ النبضات. يهزّ رأسه استحسانًا، ويمسح المرافق عرقه. خطا الجمبري إلى ركن الأثقال وانحنى مستأنفًا حمل الرافعة.

حاول إلزام عينيه بمتابعة الجمبري لكنّها زاغت رغمًا عنه إلى ظهر الفتاة الذي يتزايد جمالاً كلّما تمادت قدماها في تدوير الدرّاجة.

ـ جمال القوّة.

لم يعرف لِمَ همس بهاتين الكلمتين، هل يتحسّر على تدهور طاقته؟ هل يحاول اكتشاف مصدر جاذبيّة شابّة

fb/mashro3pdf

غلاميّة نحيفة تكفي راحة يد واحدة لاحتواء إليتيها المتوثّبتين؟

كانت تتقافز كالمكّوك على الدرّاجة بخفّة وانتظام، وكانت نظراتها تتواثب في المرايا: نظرة مبتسمة، نظرة حنق، تلحق بهما نظرة ساهية. في عين شيخ نسي ما يعنيه تقافُزُ شابّة فوق درّاجة، تبدو نظراتُها حوارًا مع ذاتها في موجات الصعود والهبوط، وربّما كانت تبتسم لمصوّرها، وربّما كان الجمبري يرى أنّها تَخُصّه بنظراتها بوصفه خصمًا يستحقّ التحدّي، بينما يمكن لطارئ خائر القوى أن يريح نفسه باعتقاد أنّها تصوّب نظرة الإغواء إلى المدرّب الأسمر بادي الوسامة والتناسق.

ـ لمن توجّه غضبها؟

تساءل من دون أن يفهم كيف ترسل بنظرة تشجيع، ثم نظرة تأنيب، فنظرة إغواء بهذا التتابع المنتظم؟ بدت إليتاها فائضتين على راحة اليد. هل كبرتا، أم هو خداع البصر بسبب تزايد السرعة الذي جعلهما تملآن مدارهما كحلقة نار في يد بهلوان؟ كان جسمها يمتلئ، وجمالها يتزايد، وكان رفيقها يتابعها باستمتاع.

استغرق فيهما حتى نسي وجود الرجل الجمبري، الذي أتى على ركن الأثقال، وأخذ يلاحق ظهرها المتوثّب

fb/mashro3pdf

بتصويبات مباشرة، بينما يتلصّص على زوايا وجهها في المرايا.

رأى في انسدال جفنيها سلامًا لا تبلغه المرأة إلّا في معبد أو سرير. حملها بين ذراعي خيَاله إلى الغرفة، لكنّها كانت تواصل الدوران في مدارها. أخذ انحلال عضلاته يتبدّد. هبّ واقفًا ومضى، وعندما وضع قدمًا على أولى درجات سلّم الخروج استدار نحو الفتاة المتوثّبة، وبنظرة واحدة استعاد كلّ الوحشة التي جاء بها إلى القاعة. واصل الصعود متجاهلاً نباح نظرة الجمبري، الذي نفض الثقل وهبَّ لاهثًا.

fb/mashro3pdf

سمع الطقّة الخفيفة، التي تعني أنّ البطاقة الممغنطة لم تزل قادرة على التخصيب. ألقى بثقله على الباب فانفتح متكاسلاً كوردة في تلك الساعة المتأخّرة من الليل. لم يعد متوهّجًا كما كان، لكنّه استغرب ما حدث في تلك الليلة. لم يخط خطوته الأولى في الغرفة حتى امتلأ صدره بعطر أنوثة جاوبته أعضاؤه بالأنين.

لم يخطئ غرفته، ولم يكن ينتظر إحداهنّ، ولا يعرف من أين ستأتيه الأنثى الشاردة، ومع ذلك لم يعد لديه أدنى شكّ في أنّه سيجد امرأة متناومة في سريره. كلّما تقدّم خطوة ازداد إلحاح العطر على أنفه فتأكّد لديه وجودها. عبَّ نفسًا طويلاً كالذي تأمره به طبيبة البرج، وأغلق عينيه ومدّد رئتيه، مثلما يفعل أثناء الفحص. تحرّك بتؤدة باتّجاه

fb/mashro3pdf

خزانة ملابسه مطيلاً ما أمكنه حبس العطر في صدره. تذكّر بلذّة رجفةَ الطبيبة ذات يوم عندما تعرّفت بشرتها على ملمس عطرها الخاصّ في زفيره الذي لفح وجهها.

تابع الاستنشاق بقوّة والزفْرَ ببطء، كمن يستحلب قطعة فوندان في فمه. تخلّص من ملابسه، وتحرّك على أطراف أصابعه إلى الحمّام. استمتع بخرير مائه تحته، مثلما يفعل في أوقات الكسل. يحبّ الطارئ أن يرى نفسه نبعًا. هل تستريح الأرض عندما تخرج الماء من ينابيعها مثلما يشعر جسده بالارتياح الآن؟

تطلّع إلى المرآة فوجد عود خيزران يانع في المزهريّة بدلاً من ذلك الذي اصفرّت أوراقه وتعطّنت جذوره واهترأت ساقه وتدلّت على حافّة المزهريّة كمصلوب خاطئ لا يجد إنسانًا ينزله إلى الأرض، أو إلٰهًا يرفعه إلى السماء.

لمح أنواعًا جديدة من الصابون ومستحضرات العناية بجوار المزهريّة. دعته الاكتشافات إلى التدقيق أكثر، فرأى أدوات حلاقته وعطره الخاصّ متراصّة في غبطة يعرفها السعداء في الحبّ.

اكتملت راحة مثانته، لكنّه ظلّ في مكانه متيحًا لها فرصة تغيير رأيها واستئناف الدفع بقطرات تتجمّع سريعًا

fb/mashro3pdf

بسبب عريه تحت نفيث الهواء المبرد من فتحات السقف. استجابت المثانة للتدليل، وأخذ يستمتع بالتسرّب البطيء للقطرات، سعيدًا بأنّها تمضي في مجراها القيشاني ولا تبلّل فراشه.

عاش عمره مرعوبًا من التبوّل اللاإرادي الذي أصابه ذات ليلة لم تتكرّر ولم ينسها. كان صبيًّا طارئًا لمدّة أسبوع ببيت أقرباء، وحلم أنّه يتبوّل، وعندما استيقظ اكتشف أنّه تبوّل حقًّا، فتابع تناومه سحابةَ اليوم حتى يجفّ الفراش. جعله الحادث ينام بقيّة الليالي بعينين مفتوحتين حذَرًا، ويمشي نهارًا بعينين مغلقتين خجلاً، حتى أصابه الانهيار. الحادث ترك ندبته على حياته طويلاً وأفقده الثقة بأحلامه وأصابه بخجل مزمن، لكنّه جعل من التبوّل في ما بعد إحدى المتع السرّيّة في حياته.

بين نزول القطرة والقطرة يرهف سمعه لما يتصوّره حركة داخل الغرفة. للحظة استبدّ به خوف من الأشباح ابتلع بهجة الترقّب للأنثى الخياليّة. لن ينتهي هذا الاضطراب إلّا بمغادرة الحمّام وتفقّد الغرفة.

قام وضغط زرّ الصرف، فانجرف مع الماء تشوُّشُ الرائحة الذي نشره بوله. عادت رائحة العطر الحلوة تسيطر على هواء الغرفة. ضيَّق من عينيه ووسّع من صدره مجدّدًا،

fb/mashro3pdf

وأخذ يستمتع بخدر الرائحة. تفحّص عينيه الحمراوين في مرآة الحمّام ومضى نحو السرير.

أخذت دقّات قلبه تتصاعد مع تصاعد رائحة العطر. تأمّل مضطربًا اللحاف المزاح قليلاً إلى الخلف. لم يكن في استواء فراش شاغر، ولا في انتفاخ غطاء يخفي شخصًا مهما كانت نحافته. كان مجرّد قنطرة صغيرة تشبه أثر استلقاء قطّة.

رفع الطارئ اللحاف مضطربًا، فوجد وردة توليب لها طلع منتصب تطوّقه بتلات متوهّجة. تأمّل أوراق الساق الريّانة التي تشبه راحة يد خضراء تحتضن الوردة البنفسجيّة. دسّ نفسه تحت اللحاف ورفع الوردة يتشمّمها بأنف فقد قدرته على التمييز، وجد تحتها ورقة صغيرة من الدفتر المتروك للطارئين لتدوين هواجس وحدتهم. قرأ الخربشات المكتوبة بقلم رصاص ترك أثره خفيفًا في حروف منمنمة:

مرحبًا سيّدي.

انتهيت من تنظيف الغرفة، تركت الكثير من زجاجات الماء وعبوات قهوة الإسبريسو التي تحبّها. أمضيت نصف ساعة سعيدة. أتمنّى لك وقتًا طيّبًا.

إويسا

fb/mashro3pdf

ـ أسوأ ما هنا، كثرة السحاب وقلّة المطر.

تمتم، وابتسم للوجه المحدّق بوجهه في المرآة. لم تكن ابتسامةَ غبطة، لأنّه توصّل إلى حكمة البرج، بل ابتسامة سخرية، لأنّه فكّر بها بينما يجاهد لكي يتمكّن من إفلات قطرة مستعصية قد يخفّف نزولها ألم مثانته المستعصي.

عاد يتأمّل العبارة هاربًا من اصطدام عينيه بالعينين المتألّمتين في المرآة فوق حوض الوجه. طاف بنظرته في السقف يشاغل الألم، بينما يحاول تذكّر الإيماءات التي كانت أكثر وعدًا من بين ما لا يستطيع إحصاءه من النظرات الواعدة التي تلقّاها وانتهت إلى لا شيء.

fb/mashro3pdf

تذكّر الوعيد الذي كان يتمتم به لتخفيف ألم الإخفاق على نفسه.

ـ ستكبرين أو ستغادرين.

استمتع برؤية وعيده يتحقّق في طارئات رآهنّ يجرجرن حقائبهنّ ويرحلن عن البرج بعد أيّام قليلة من وصولهنّ، الكثيرات هرمن تحت عينيه وصرن أكثر تواضعًا، لكنّه قابلهنّ بالصدّ.

ـ الحظّ زائر يأتي مرّة واحدة.

كانت نظرته تقولها ردًّا على عجوز تبصبص، بعد أن تمنّعت عليه عندما كان راغبًا، والآن يقولها لنفسه عندما تعجبه طارئة شابّة تأخّرت حتى صارت عينُه العضوَ الوحيد الذي يعرف ماذا يريد الرجل من المرأة. مع ذلك، فإنّ حدّة عينيه لا تؤلمه بقدر الألم الذي تسبّبه له الذكريات.

ـ الحظّ لا ينتظر على الباب طويلاً.

قال مؤنّبًا ذاته على فرص أضاعها، إذ لم يكن مرفوضًا دائمًا. وسرعان ما يردّ صوت عقله بأنّه لم يقصِّر لكن الظروف فعلت هذا. ولا يكاد يستريح من التأنيب حتى يعود الطنين في رأسه صدًى معاكسًا.

ـ لم تكن تحسن التصرّف.

fb/mashro3pdf

صرخ ليقاوم ألمًا انتصر، وقطع الصرخة، وأغلق عينيه ثم حوّلهما إلى أسفل لرؤية قطرات تتساقط وتكاد تخرج معها روحه. بَحْلَقَ في وجه الرجل المتألّم يعضّ شفته في المرآة. أفلت شفته كاظمًا ألمه بينما يتأمّل بداية خرير ضعيف تمكّن من تلطيف أثر حرقان القطرات الحرّيفة.

عاد مجهدًا إلى السرير. استلقى وصوّب جهاز التحكّم إلى التليفزيون. أضاءت الشاشة على قناة الأفلام، التي لم يعد يتحوّل عنها: شارع خال تحت المطر المنهمر. ظهرت سمراء ممشوقة مهوشّة الشعر تهرول تحت مظلّتها. اختفت المرأة في حارة ضيّقة بين صفّين من العمارات الرماديّة الشاهقة وظلّ إيقاع خطوها مسموعًا... هي ثوان كانت كافية لتبديد سلامه. تذكّر الصقلّيّة وتمدّدت صورتها حتى منعته من متابعة الفيلم وحرمته من النوم.

أخذ يحصي الساعات الطويلة التي كان يقضيها واقفًا في الظلام يبصّ من عدسة الباب، مستعدًّا للخروج في اللحظة التي تظهر فيها أمام المصعد. كان يلتمسها أيّامًا في السادسة قبل الغروب، الموعد الذي جمعتهما فيه المصادفة ذات مرّة أمام المصعد. ثم بدأ في ترقّبها مع كلّ صوت كعب حذاء على رخام الردهة. كان بحاجة إلى كلّ ضروب المواساة كي يقنع نفسه بأنّ إخفاقه في الاقتراب

fb/mashro3pdf

منها قد يكون الحظ الحسن.

ـ لم تعرف شيئًا عن مغامرات سنواتها الخمسين.

يواسي نفسه، وسرعان ما يتحطّم عزاؤه أمام صورة المرأة الحيويّة إلى حدّ لا يمكن أن تكون فيه مصدرًا لموت. يفكّر في عشرات الجمل الذكيّة التي كانت تصلح فخًا لصيدها عندما ترافقا في المصعد، يأكله الندم على بطء بديهته التي جعلته يبدو رجلاً بلا بريق. يغمض عينيه فيعود صدرُها المتكبّر ليدفع به بعيدًا، فلا يجد مفرًّا من النبش داخل ذاته بحثًا عن السلوان.

ـ ربّما كان وهمًا الصرحُ الذي بنيتُه من ابتساماتها.

لا يتذكّر الطارئ مَن الذي حذّره ذات يوم من شَرَك ابتسامة قد تكون مجرّد تمرين رياضي، بعد أن بات كثير من النساء يعتقدن بأنّ الابتسام يؤخّر ظهور التجاعيد. تكبر الفكرة في رأسه، ويدلّل عليها بأنّ الصقليّة رأته لحظة خروجه وعرفت غرفته، ولو كان في نيّتها التقرّب لهاتفته، أو لربّما دقّت باب الغرفة.

وجود غرفته في بداية الممرّ يجعل تعيينها سهلاً على الآخرين، كما يمكّنه من رؤية البهو المربّع الذي يتوسّط صفّي المصاعد.

fb/mashro3pdf

كان يعرف الممرّ الذي أتت منه الصقلّيّة عندما رآها أمام المصعد. فكّر في اجتيازه والتطلّع إلى أبواب الغرف، فقد يجد بابها مفتوحًا، أو يحدس وجودها من خلف الباب عندما يمرّ أمامه، لكنّه كان في كلّ مرّة يتوقّف في المربّع بين صفّي المصاعد. فكّر أنّهم اختاروا المرمر أرضيّة باردة لباحة اللاأحد، بينما يسبغ الموكيت دفئه ويعطي الخصوصيّة للممرّات التي تتراصّ عليها الغرف.

موقع غرفته مميَّز لطارئ يهوى الوقوف خلف العدسة الكاشفة، لكنّه في الوقت ذاته الأسوأ بالنسبة لروح مستوحشه تبحث عن الدفء. الإقامة على الناصية تجعله غريبًا عن الطارئين الآخرين المشمولين بألفة الممرّ الضيّق، يعيش محرومًا من التحيّات الضروريّة بين قاطني الغرف المتقابلة والمتجاورة عندما يلتقون مصادَفةً أمام الأبواب. وإذا ما توغّل ساكن الناصية في الممرّ يلفت نظر ساكنيه، مثلما تفتح البيوت أبوابها دهشة عندما يظهر غريب في زقاق، والجميع سيتطلّعون إليه ليروا أيَّ باب سيطرق. وغرفة الصقلّيّة لم تكن في الممرّ الذي تقف غرفته على ناصيته، وظهوره في ممرّها سيكون غريبًا ومنتقَدًا من طاقم خدمة الدور الذي بات يعرفه جيّدًا.

لم يكن الوقت الضائع في الانتظار ليصرفه عن

fb/mashro3pdf

الوقوف حتى التعب وراء الباب. يحاول إكمال المشاهدة، لكنّه لم يستطع التقاط خيط الأحداث، فعيناه كانتا تتربّصان بحاملة المظلّة التي لم تعاود الظهور، ويركّز في جملة حوار، لكن خيالات المرأة التي كانت مشتهاةً تنتصر على رغبته في الهدوء.

يستلّ من فوق الكوميدينو الدفترَ الصغير وقلم الرصاص الممهور هو الآخر بشعار البرج. يشرع في محاولة رسم الصقلّيّة استنادًا إلى حرف Z، يُجسم الاندفاع المتعاكس لصدرها وعجزها، يتحرّى بقدر طاقته محاولة رسم الوجه الصقيل تحت الشعر المهوش، انتصاب الساقين فوق الكعب العالي، يتأمّلها راضيًا، ينزع الورقة ويقوم إلى حقيبته، يدسّها في جيب البطانة. يغلق الحقيبة ويخطو نحو الباب متظاهرًا بتمشية رجليه المتيبّستين، يتلصّص على البهو الساكن. يخيّل إليه أنّه يسمع صوت حفيف فستانها مقبلة، يهمّ بالخروج لملاقاتها أمام المصعد، لكنّه يتراجع خشية الخذلان.

في ظهيرة تتوهّج الآن برأسه، ظلّ في مكانه متشبّثًا بعدسة الباب. لم ينتظر طويلاً حتى برقت عائدة باتّجاه غرفتها. أحسّ الطارئ أنّ بوسعه النوم قليلاً ثم التربّص بها مجدّدًا لحظة خروجها المسائي.

fb/mashro3pdf

استلقى بملابسه في سريره المرتّب. لم يعرف النوم طريقه إلى عينيه. ظلّ مبحلقًا في السقف يستمع إلى صراخ الغرفة المجاورة، سمع وقع كعب على مرمر البهو. قام إلى الباب مسرعًا. جفلت من خروجه المفاجئ.

ـ هاي.

قال بصوت خافت يكاد لا يسمعه، وأومأت بالردّ. جاء المصعد سريعًا. تبعها إلى داخل العلبة. لم تكن تضع عطرها، وكانت تبدو أقلّ حيويّة، حتى تجعيد شعرها كان يُبدي إهمالاً لا صنعة. أخذ يتأمّلها ولم يقل شيئًا، وعندما وصلا إلى الأرض جرّت حقيبتها ومضت.

ـ وداعًا.

يتذكّر الآن تلويحته المقتضبة، ونظرته الحزينة تتابع خطوها المرح على رخام البهو، قبل أن ينغلق عليه مجدّدًا باب العلبة المعدنيّة التي أخذت بالصعود.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

اشترى هاتفًا إضافيًّا يحميه من النظرات الشفوق. يدخل إلى المطعم أو إلى المصعد أو النادي الرياضي بهاتف في يده والآخر مخفي في جيبه. يغافل الآخرين ويضغط زرّ المخفي، يرنّ هاتف اليد فيصطنع الإحساس بالمباغتة، يتأمّل الرقم المتّصل، ويدع الرنين إلى قرب نهايته ثم يفتح الخطّ ويبدأ بالثرثرة.

أعفته مكالماته مع نفسه من إحساس برثاء الذات، وعندما يكون وحيدًا في غرفته يطلق الرنين عبثًا لكي ينبّه الطارئين في الغرفة المجاورة إلى وجوده.

لم يعد الرنين يكفي للتنبيه، ولم تعد ثرثراته الطويلة مع نفسه تصلح لطمس صوت المرأة الشابّة الذي يخترق

fb/mashro3pdf

الجدار الهشّ ويُذكِّره بوحدته وتداعي أعضائه. والأسوأ كان استفحال الصراخ وانتشاره بشكل عشوائي في أيّ وقت من النهار والليل. وبعد أن كانت التأوّهات تؤرّق قيلولاته بعذوبة، باتت تضغط على أعصابه في الليل مثل سوسة تنخر في عصب الضرس.

يفكّر مرارًا في طلب تغيير غرفته، وفي اللحظة ذاتها يتراجع عن الفكرة، لأنّه غير واثق من نتيجة طلبه، في ظلّ تدفّق الطارئين، وساعتها سيفقد ألفته مع الغرفة، ويحسّ بإهانة لا يعرف كيف أو إلى من يجب أن يردّها.

ـ وإن استُجيب لك، ماذا تفعل؟

يدير في ذهنه الاحتمال الآخر، فيصيبه الوجل من فكرة تغيير غرفةٍ أَلِفَها، على الرّغم من علمه بتطابق الغرف: الثلّاجة نفسها، الغلّاية، ماكينة صنع القهوة، اللوحة المعلّقة على الحائط، حجم السرير، اتّساع الحمّام وألوان الأرائك... لكن من غير المعقول أن تطرق الشمس زجاج واجهة غرفة أخرى من الزاوية ذاتها ولا يمكن أن تنسحب من الغرفة في ذات التوقيت الذي اعتاده كلّ هذه السنوات، وصار يعرف منه ساعات النهار وفصول السنة. سيصله صوت المصاعد من خارج الباب حتمًا، لكن لن يكون بالكيفيّة ذاتها، سيرى أبراجًا أخرى، لكنّه

fb/mashro3pdf

لن يرى الأبراج ذاتها التي يراها من واجهته، لا برج النهود الأربعة ولا ذاك المصمّم على هيئة واق ذكري. يتراجع عن الفكرة، يرفع صوت حواره مع نفسه، أو يزيد مؤشّر صوت التليفزيون للتغلّب على صخب الغرفة المجاورة. ولأنّه بحاجة إلى التنفّس بين جملة وجملة، كما يفعل متحدّثو التليفزيون، تباغته في لحظة الصمت آهة تشقّ سكون الليل مثل طلقة، وتباعد نومه.

استرجع عادة التربّص خلف عدسة الباب أيّامًا طويلة، لكنّه لم يتمكّن من رؤية ساكنَيِ الغرفة المجاورة اللذين يتسافدان بدأب عدواني.

ـ لن أصبر على هذا إلى الأبد.

قال، وبعد آهة شرسة حفرت مسارها في حزنه، ارتدى خفّ القنّب وروبًا فوق ملابسه الداخليّة وخرج غاضبًا. طرق عنيفًا على الباب، فتوقّف الصوت بالداخل لكنّه لم يتوقّف عن الطرق. فتح الباب رجل ربعة لا تبدو ملامح وجهه المستدير من خلف لحية وشارب رماديين مهوشين، ودعاه للدخول. تردّد برهة ثم استجاب لإشارات اليد الملحّة.

سار الرجل أمامه إلى ركن الاستقبال، حيث تتناثر كتب وألبومات صور وعبوات عصير فارغة. ألقى نظرة

fb/mashro3pdf

على المكان كلّه. كان واضحًا أنّ الرجل وحيد، فوسط فوضى السرير جهاز كمبيوتر تتلاعب تشكيلات من حزم الضوء على شاشته.

ـ بارد أم ساخن؟

سأله الرجل، فأومأ شاكرًا. جلسا متواجهين صامتين. أحسّ بسخافة ما أقدم عليه.

ـ يزعجك الكمبيوتر؟

بادر المضيف، فتضاعف خجله ولم ينبس.

ـ آسف إن كنت أزعجك، لكنّك ربّما لم تعرف معنى الفَقْد.

فوضى الغرفة وتشعّث الرجل عزّزا إيمانه بقانون الحياة الذي لا يتفهّمه العاشقون، فليس في الدنيا إلّا رجل متروك أو امرأة متروكة، لأنّ القيد يطوّق معصمَي الشريكين في اللحظة ذاتها، لكنّه ذاتَ يوم يحرّر معصمًا ويُبقي الآخر مقيّدًا.

ـ لستَ أوّل ولا آخر مخذول.

قال الطارئ مواسيًا.

ـ لم تتركني، لكنّها صعدت...

fb/mashro3pdf

صرخ ساكن الغرفة منزعجًا فأحسّ بالورطة التي وضع نفسه فيها، وبحلق إليه مذهولاً.

ـ لستُ مجنونًا.

قال الرجل، وأخذ يشرح كيف شرعت في التسارع فوق آلة الجري بصالة الرياضة مثلما تفعل عادة، لكنّها تجاوزت الحدّ في ذلك اليوم فاندفعت كالشهاب واخترقت زجاج النافذة، ثم حطّت بعيدًا في البحر واستأنفت الركض فوق سطح الماء الساكن.

ـ لا تنظر هكذا، أنت نفسك تعرفها.

صرخ الرجل وأخذ يهزّه بعنف بعد أن جمع دفّتي روبه بين يديه. تملّص منه وشرع في الهروب، فاستوقفه المضيف بنظرة توسّل حزينة. مضى إلى السرير، لامس مربّع التحكّم فندّت عن الكمبيوتر صرخة جديدة أوقفها الرجل بسرعة، ومضى نحو الطارئ يوازن الجهاز على راحة يد وبأصابع الأخرى يعبث بمربّع التحكّم.

ـ انظر!

قال، بينما ضغط زرّ التشغيل. تأمَّلَ الصورة مندهشًا، وتذكّر ذلك اليوم البعيد عندما اكتشف وجودَها وخفّفت عنه متابعتُها وطأةَ تحدّي الرجل الجمبري.. مصمص شفتيه

fb/mashro3pdf

مواسيًا أسِفًا، نظر في عيني المضيف فتذكّره، تذكّر جلسته على آلة عضلات الصدر. كان حليقًا مبتهجًا والكاميرا في يده تلاحق حركتها باشتهاء.

ـ سجّلتُ كلّ لحظاتنا.

قال الرجل ضاغطًا زرّ التوقيف، فثبتت صورة ردفين يملآن راحة يد واحدة داخل بنطلون منتفخ بالهواء.

fb/mashro3pdf

في السنوات الأولى من إقامته في البرج، كان يستخدم الصندوق الحديدي للصعود أكثر ممّا يستخدمه للهبوط. وفي كلّ مرّة يصل إلى الطابق السادس والعشرين يترجّل ويعطي ظهره لباب المصعد ويقف لحظات متحيّرًا: جهةَ يده اليسرى بركةُ السباحة، وعلى اليمين صالة البخار والجاكوزي وصالة الألعاب الحديديّة وغرفة التدليك. ولأنّه كائن مائي، لم يكن يدخل صالة الألعاب إلّا نادرًا. المقارنة اليوميّة المحيّرة التي تنعقد في رأسه كانت بعد وَحْشَةٍ ممتعة تنتظره في بركة ماء بارد تدفّئه السابحات وأشعّة الشمس المتسلّلة من زجاج القبّة النهد، وبين بخار ساخن في غرفة البخار المظلمة تمنحه سلامَ وحشةِ العزلة.

ولا يمكن لكلّ البشر أن ينظروا إلى الماءين من

fb/mashro3pdf

الزاوية نفسها ـ البركة الباردة تَعِدُ بإمكانيّة لقاء الحبّ منظورًا إليها بعين طارئ لم يزل ماء الحياة يتدفّق برعونة في عموده الفقري. أمّا بالنسبة لطارئ تَضاحَلَ ماؤه، فهي مكان لتطهير المجرى وإحيائه، وبالنسبة لطارئ عاش حتى تيقّن من عبث الانتظار، فهي مكان لتذكّر ما لم يعشه.

وقد أقلع منذ سنوات طوال عن البركة التي تبدِّد سلامه بلا داع. ولأن أطرافه لم تعد قادرة على تحريك الحديد، لم يتبقّ له في الطابق السادس والعشرين سوى غرفة البخار، التي تمنحه هُمُودًا يشبه ذلك الذي يصنعه لقاءُ حبّ عاصف. عيب غبطة الاستحمام أنّها هشّة، سرعان ما تتبدّد مع زوال أثر البخار الحارّ من المفاصل.

لم ينتظر في ذلك اليوم تسلّل الهواء البارد إلى أعضائه كي يفقد اكتماله. جفّف نفسه جيّدًا وغادر غرفة البخار سريعًا، آملاً في الوصول إلى الفراش بغبطة الهمود اللذيذ ليحظى بساعة نوم بعد أن هزم الأرقُ كلَّ أنواع الحبوب المنوّمة. وصل إلى المصعد في لحظة إغلاق أبوابه للهبوط، لكنّ العلبة الحديديّة ارتجّت بفعل اليد التي امتدّت إلى الأزرار في الداخل لتعرقل الإغلاق.

ـ آسف.

قال متردّدًا في الدخول إلى المصعد.

fb/mashro3pdf

وردّت بالخجل ذاته:

ـ آسفة.

كان خجل المباغتة واضحًا على كلّ منهما، بينما كانت عيناها تدعوانه للدخول. وجد نفسه في علبة المرايا مع امرأة وحيدة ترتدي لباس السباحة. أخذا يرتعشان، لا فرق بين المبلّلة بالماء البارد والمبلّل بالبخار. كان واضحًا من نظراتها التي تنفرش على وجهه أنّها عرفته قبل أن تعرقل المصعد، أمّا هو، فلم يتبيّنها إلّا من ارتعاشة شفتيها النحيلتين اللتين أعادتا إليه لحظة سعالها الصعبة.

أضاف الزمن بضعة كيلوجرامات إلى جسمها وأنقص قليلاً من طولها، لكنّ النظرة بقيت كما هي، من دون زيادة أو نقصان. الشعاع المنطلق منه إلى عينيها المرجّبتين حمله إلى بحيرة حياتها من دون قدرة على مقاومة الجاذبيّة.

مثل طفل على زلّاقة، سرعان ما انزلق إلى ذكرى ذلك اليوم العائلي، حيث كان بوسع أحدهما أن يبادر إلى حفر مجرى للنبع الذي تدفّق بينهما، لكن أيًّا منهما لم يفعل.

أخذت خيوط نظراتهما تتعقّد أكثر فأكثر كلّما اندفع المصعد هابطًا، وكانت كلّ ألوان المشاعر تتدافع في

fb/mashro3pdf

العيون مثل عرض سريع على شاشة. هَمَّ أن يقول لها شيئًا ولم يستطع، همّت أن تردّ على ما لم يقله ولم تقدر.

حدّق الطارئ في الجسد المبلّل أمامه محاولاً ما أمكنه حجب الأسى على ما لم يكن.

ـ كيف تتجوّل هكذا؟!

قال لنفسه مندهشًا. هل هي مستهترة إلى هذا الحدّ، أم أمّنت ساعة القيلولة الساكنة ولم تتوقّع أن يراها أحد في الممرّ أو يشاركها علبة الحديد؟ هل حدث مكروه للزوج أو الابن في الغرفة لكي تذهل عن نفسها وتعود عارية تقطر ماء؟ هل الرجلان لا يزالان معها في البرج أم غادرا؟ كيف سيكون شكل الصبي الآن؟

وكانت عيناها المتفحّصتان تسألان: هل ما يزال وحيدًا؟ ألم يتعرّف على طارئة تتسلّل إلى مساءاته؟ هل كان نحيفًا هكذا؟ هل كان له هذا القتب الصغير منذ البداية؟ هل احدودب حقًّا أم أمالته الرغبة نحوها حتى ليكاد يلتقم شفتيها؟

أضاءت علامة الطابق الثاني والعشرين وانفتح الباب. لم يتحرّك. أخذت عيناه تبتهلان إليها كي تتبعه، تحرّك خطوة، تحرّكت نصف خطوة، وبخطوة ثانية صار على عتبة المصعد مفتوح الباب، أضافت خطوة أخرى لكنّها جفلت

fb/mashro3pdf

وتراجعت عن نصفها ثم جمدت. زاد اضطراب الطارئ فاتّخذ الخطوة الثالثة محرِّرًا باب المصعد من ظلّه.

ـ آسف.

قال بارتباك.

ـ آسفة.

جاوبته كما لو كانت تحلم، وبدأ المصعد يخرخش استعدادًا للهبوط.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

الإضاءة الخافتة ذاتها، الفساتين الباذخة المعتادة للنادلات في عشاء يوم العطلة، لكنّه لم يعد يشعر بحنين أو فضول. لا يميّز طبقًا من طبق، يومًا عاديًّا من يوم عائلي، ولم يعد يميّز نادلة من طارئة. ولم يعد ذلك الزهد مبهجًا ولا محزنًا، لأنّه لم يحدث فجأة. كان يتقدّم في السنّ بمثل الراحة التي يلمسها المصطافون على شاطئ جيّد التمهيد عندما يتقدّمون من المياه الضحلة باتّجاه الأعماق مستشعرين ارتفاع المياه من الكعوب إلى الكواحل حتى تغمر آذانهم مستسلمين لدغدغة برودة صارت مألوفة.

هواية التقاط كسر الكلمات وتركيبها جعلته يتقن اللغات كلّها، ومنحته ثرثراتُ العيون مهارةَ قراءة الوجوه. صار بوسعه تمييز سحنة من سحنة ولسان من لسان،

fb/mashro3pdf

وتحديد الأماكن التي طرأ منها النزلاء والنُّدَّل، ليس مجرّد التعرّف على الدول التي يحملون وثائق سفرها، بل صار بوسعه تحديد القرية أو المدينة الصغيرة أو الحيّ الذي جاء منه الطارئ والطارئة، النادل والنادلة.

يتوجّه إلى المطعم في الصباح، يقضي يومه مع العابس حتى وقت إغلاق المطعم في منتصف الليل. يرفع قدميه ويحاكي العابس في جلسة القرفصاء على الكرسي، يُثبِت ـ مثله ـ الكوع على الطاولة بينما يحتوي جبينه ويهدهده براحة يد مرتعشة. وبين الحين والحين يأتي من يضع أمامهما فنجاني القهوة التركيّة أو يحمل طبقين لم يمسّاهما.

تمضي الساعات من دون أن يتبادلا كلمة واحدة، وعندما يعبر أمامهما شخص ينطق باسم البلد الذي ينتمي إليه، يقولها بحسم ولامسؤوليّة، مثل عرّاف ينقل ما تمليه الجنّ، ويومئ له العابس مؤمِّنًا بتحديقة من عينيه المطفأتين. كان أنف العابس يزداد رهافة يومًا بعد يوم. وصار تمييزُ أوهنِ خيطِ رائحةٍ تسليتَه الدائمة. يطوح برأسه إلى الوراء ويُشرع فاه وأنفه لشهيق عميق، يحبس الهواء في صدره قليلاً ثم يبدأ في تسريبه ببطء وينطق بهويّة صاحب الرائحة. يعرف النادلة البوسنيّة من الجاويّة، الطارئ

fb/mashro3pdf

الكراكاسي من الفييني، خادم بومباي من خادم الحبشة.

شرع يقلّده، يغلق عينيه وأذنيه ويشهق ثم يبدأ في تفحّص روائح الهواء المحبوس. اكتشف أنّ الناس وإن زهدوا أماكنَهم أو زهدتهم الأماكن، لا يغادرونها من دون أن يَعْلَق بهم شيء من روائحها ـ رائحة وردة قطفها الطارئ أو سحقها في طريقه، رائحة سمكة أكلها، رائحة عطر محلّي علق بوجهه من آخر قبلة تلقّاها قبل المغادرة، أو دبق عرق دابّة ركبها حتى أوّل محطّة قطار.

ـ دارفوري.

قال، فأومأ العابس الأعمى باتّجاه الرائحة مستبشرًا، حيث يجلس شابّ أسمر نحيل تقف أمامه النادلة بقامتها وعنقها الملكيين.

ـ هل تحبّ أن تجرّب الآيس كريم سيّدي؟

همست بجفون مسبلة كما لو كانت تقرأ آية من كتاب مقدّس. وأجابها الدارفوري الشابّ مرحّبًا بعينين مفتوحتين وابتسامة كاللغز، محدّقًا في البطاقة النائمة على صدرها.

ـ كاثرين؟

تساءل الدارفوري مستغربًا الاسم، بينما كفكفت النادلة الوشاح الذي انزلق وترك ذراعيها عاريتين.

fb/mashro3pdf

ـ نعم، كاثرين، كاثرين يا سيّدي.

قالت، وانسحبت على أطراف أصابعها برشاقة بجعة. تحوّل عنهما وتمتم بكلمة لم ينتبه إليها العابس، الذي دارت رأسه بالفراغ ونهض يتلمّس طريقه نحو الحمّام.

نصب جذعه ومدّ ساقيه حتى لامست قدماه قائمتي الكرسي الذي تركه الرجل الأعمى. أغمض عينيه وأذنيه متناومًا، فحاصرته رائحة قويّة، تشمّمها خطفًا مرّتين قبل أن يشهق عميقًا ويحبسها في صدره. كانت رائحة حبّة المانجو التي دسّتها أمّه في حقيبته قبل أن يودّعها في ذلك اليوم البعيد.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf